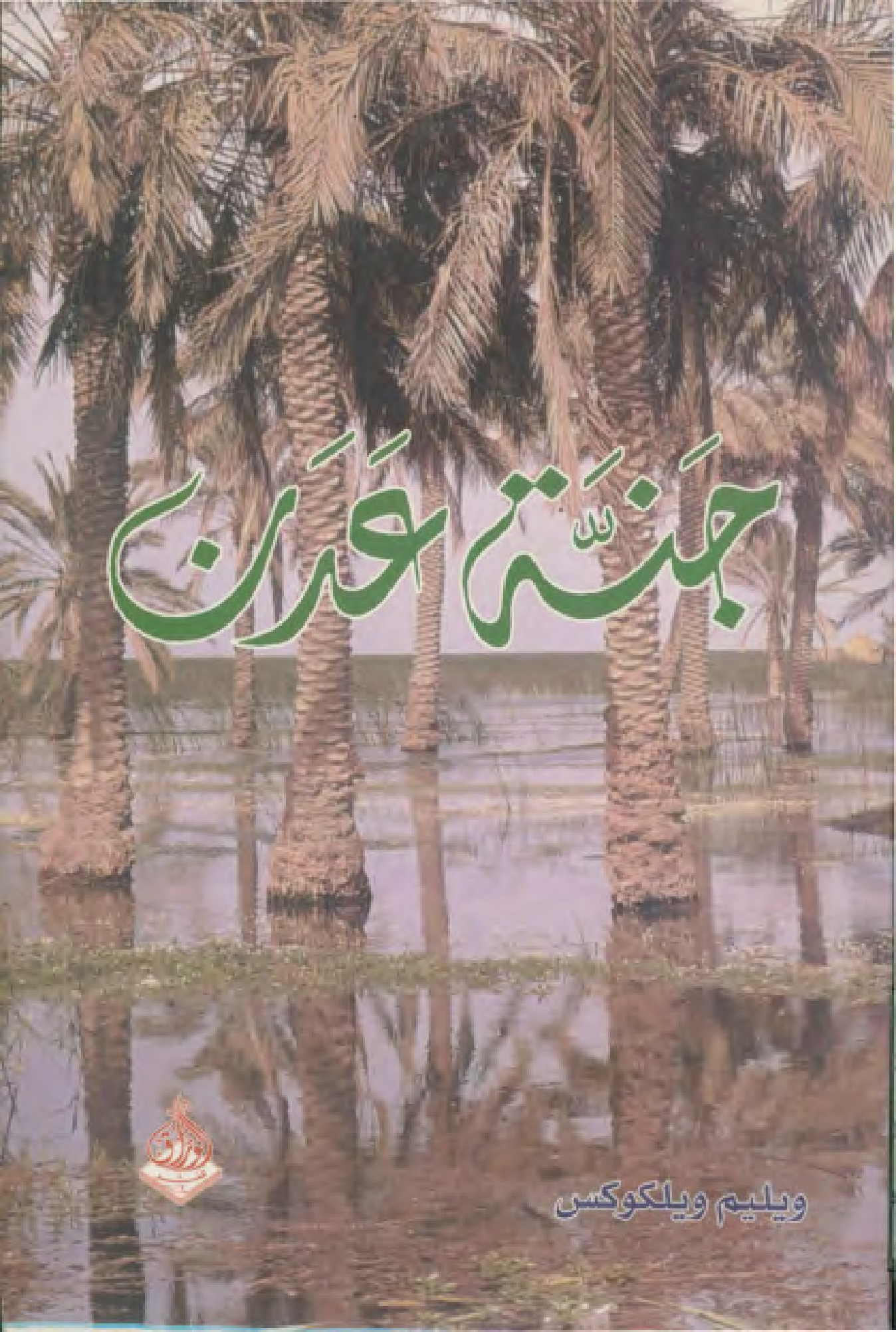

ویلیم ویلکوکس

جنة عدن

ويليم ويلكوكس

من

جنة عدن

الى عبور نهر الأردن

ترجمة

د. محمد الهاشمي

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادّته بطريقة الإسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت «الكترونية» أو «ميكانيكية»، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك. إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً.

All rihgts reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publisher.

جنة عدن

ويليم ويلكوكس

ترجمة: د. محمد الهاشمي

الطبعة الأولى لشركة دار الورّاق للنشر المحدودة - لندن : 2006.

* جميع الحقوق محفوظة © لشركة دار الورّاق للنشر المحدودة.

* تصميم الغلاف: جبران مصطفى.

* صورة الغلاف: أهوار العراق.

* الناشر: شركة دار الورّاق للنشر المحدودة - لندن.

www.alwarrakbooks.com

ISBN: 1 900 700 57 3

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.
Suite 500, 56 Gloucester Road,
London SW7 4UB. UK
Fax: 0044-207 581 9213
Tel: 0044 208-7232775
warrakbooks@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع
بيروت - الحمرا - بناية رسامني - طابق سفلي أول
ص. ب 6435-113 بيروت - لبنان
هاتف: 00961-1-750054
فاكس: 00961-1-750053
e-mail: info@alfurat.com

الفهرس

المقدمة 7
الفصل الأول: جنة عدن وطوفان نوح 11
الفصل الثاني: ألواح الخليقة والطوفان 37
الفصل الثالث: سني المجاعة في عهد يوسف 67
الفصل الرابع: الأوبئة العشرة وعبور البحر الأحمر 95
الفصل الخامس: في وادي التيه وعبور الأردن 141

المقدمة

كانت الفصول الخمسة لهذا الكتاب الذي يبحث عن الحوادث التأريخية القديمة التي ورد ذكرها في العهد القديم، في الأصل محاضرات ألقيت في المعهد المصري، وفي الجمعية الملكية الجغرافية في القاهرة خلال سنتي 1913 و1917. وفي الفترة الواقعة بين سنتي 1909 و1911 ألقيت عدة محاضرات أخرى في الجمعية الملكية الجغرافية في لندن حول موضوع [جنة عدن] و [طوفان نوح] كما نشرت عنهما مقالاً في مجلة بلاكوود الصادرة في شهر اكتوبر (تشرين الثاني) سنة 1914. أما الفصول الثلاثة الأخيرة فهي نص المحاضرات كما ألقيت حرفياً. وأما الفصلان الأولان فقد أدرجت فيهما المحاضرتان الأوليان مع بعض تعديلات وأضافات جديدة. لقد قضيت أربعة وثلاثين عاماً في دراسة كل ما ورد في العهد القديم مما له صلة بالري وبالاقطار التي يشملها نظام الري. وهذه الدراسة مشفوعة بتحرٍ عملي دقيق لتلك الأقطار. وما هذه المحاضرات إلا ثمرة لذلك الدرس وتلك التحريات. والذي ساعدني على هذا اختصاصي بهندسة الري ومعرفتي الجيدة باللغة العامية التي تختلف اختلافاً بيناً عن اللغة العربية الفصحى.

لقد تفضل الأستاذ المحترم سايس فقرأ فصول هذا الكتاب وصحح الأخطاء التي ارتكبها تلميذ مبتدئ مثلي في علم الآثار

القديمة. كما أنه شرَّف الكتاب بوضع مقدمة له. وأني لفخور جداً بأن أدرج فيما يلي نص هذه المقدمة. قال الأستاذ سايس:

طلب إلي السير ويليم ويلكوكس الذي كان زميلاً لي حين كنا نعمل معاً في حقل الآثار القديمة، أن اضع لكتابه الجديد مقدمة موجزة، فالذي لاحظته لدى قراءتي هذا الكتاب أن المؤلف عالج الموضوع بطريقة مبتكرة من أساسها. وفي الوقت نفسه فان له وجهة نظر مهمة جداً؛ وجهة نظر مهندس عملي خبير بشؤون الري، يعرف معرفة جيدة أراضي مصر والعراق. فهو لم يزودنا فقط بمواد جديدة لحل المشكلات التي تتعلق بالعهد القديم ولكنه أتانا بوسائل مبتكرة لحلها أيضاً. وهذه الوسائل أهم من تلك الحلول. ثم أنه لم يعبأ بالتفاسير التقليدية ولا بنظريات النقد أو فروضها بل هاجمها بجرأة وبغض النظر عما يؤدي إليه هذا المسلك من مخالفة لما توصل إليها العلماء في هذا الحقل. وقد اعتمد المؤلف على قوة المنطق وسلاح العلم التجريبي. ومع إني لا اتفق وأياه في جميع النتائج التي توصل إليها في بحثه، إلا إني مع هذا اعترف بأنه لا يوجد بين تلك النتائج ما يمكن إهماله أو ما لا يثير اهتماماً من وجهتي النظر الفكري والجدل المنطقي معاً.

ولا بد أن نتذكر أن الفصل الأول من هذا الكتاب إنما خطته براعة رجل لم يكتف بالبراهين المنطقية فحسب، وإنما عزز آراءه بالأدلة العملية وأثبت وجهات نظره بالمشاريع العظيمة التي أقامها في أرض العراق، فأعاد إليها جنة عدن مرة أخرى، وأحيا 300,000 ايكر من الأراضي الموات المندرسة، فصار من الممكن من الآن فصاعداً لجيوشنا أن تعتمد إلى حد بعيد، على غلات البلاد في تموين نفسها. والمعنى الذي استظهره من كلمة «ايد» العبرية وهو «الفيضان» أو «الاغمار» والتي وردت خطأ في الترجمة الانكليزية للعهد القديم

بمعنى ـ الضباب ـ هذا المعنى أيدته أدلة واضحة من علم «فقه اللغة». فهذه الكلمة إحدى الكلمات البابلية الكثيرة التي استعارها العبريون من السومريين (البابليين القدماء) وكانوا يقصدون بها «الفيضان» أو «الاغمار» وكانت تطلق من وجهة فنية على فيضان النهر. وبهذا يظهر أن المقصود من عبارة «يطلع من الأرض ويسقي كل وجة الأرض» التي وردت في الترجمة الانكليزية هو «يجري على الأرض ويسقي كل وجه الأرض».

أما الفصل الذي يبحث عن الطوفان فإنه يلقي ضوءاً جديداً على التاريخ. ولعل أكثر القراء سيجدون في الفصل الذي يبحث عن الاوبئة التي حدثت في مصر ما يثير اهتمامهم الكثير. وكل من عاش في مصر يجد قناعة تامة فيما ذكره السير ويليم ويلكوكس. فقد أثبت لنا أن هذه الاوبئة لم تكن أحداثاً تاريخية حقيقية فحسب وإنما هي أمور تقع اليوم أو بالأحرى لا بد من وقوعها كلما حصلت اضطرابات خارجية وكان مستوى النيل واطئاً. والذي يلفت النظر بصورة خاصة ايضاحه الحقيقة القائلة إن بعض هذه الاوبئة لم تحدث في أرض «جاسان» التي كان يقطن فيها الإسرائيليون. وهذا الايضاح لا يستطيع أن يدلي به إلا مهندس اتخذ ري مصر مهنة عملية له.

بيد أن مقترحات السير ويليم ويلكوكس ووجهات نظره الحديثة لم تقتصر على المواضيع الهندسية فحسب فقد كان من حين إلى آخر يبدي ملاحظات من شأنها أن تزعزع المعتقدات القديمة الراسخة في النفوس ويقترح مسلكاً جديداً للتفكير والبحث العلمي. فقد ذهب إلى أن «قادش برنيع» لا بد أن يكون المعبد الصحراوي الذي يقطع المسافر إليه مسيرة ثلاثة أيام والذي كان موسى النبي قد فكر في

بادئ الأمر أن يأخذ بني إسرائيل إليه. في حين أن من الصعب على المرء أن يتصور السر في عدم ذهاب أحد من المؤرخين قبله إلى هذا الرأي. وقد ذهب أيضاً إلى أن الالواح التي كتب عليها النص الأصلي لشريعة موسى كانت من الطين لا من الصخر، وذلك لأن الصخور الحجرية كانت ثقيلة نوعاً ما بحيث يتعذر نقلها من مكان إلى آخر كما ان من الصعب تكسيرها. وقد أيد هذا الرأي بالقياس على الألواح التي كتبت عليها شرائع حمورابي الأصلية فإنها كانت من الطين. هذا إلى أن الطين كان المادة الشائعة التي تستعمل للكتابة في القسم المتمدن من غربي آسيا في عصر موسى وقد كتبت على هذه الألواح الوصايا العشر أيضاً وذلك في الخط البابلي وباللغة البابلية.

أما الفصل المتعلق بطريق خروج بني إسرائيل من مصر فإنه يعيد، بدون شك، إلى الذاكرة الخلاف القديم حول هذا الموضوع، وهناك مجال واسع للكلام حول نظرية بروكش التي احياها السير ويليم ويلكوكس وأيدها بأدلة جديدة منه. أما أنا فأميل إلى الرأي الذي حاولت اثباته في كتابي [تاريخ العبريين القديم] وهو أننا إذا رجعنا إلى النص الموجود بين أيدينا في العهد القديم نرى أن هناك غموضاً في هذا الموضوع. وهذا الغموض ناشئ من وجود رأيين متضاربين من حيث تعيين المكان الذي عبر منه بنو إسرائيل [البحر الأحمر] ومن حيث المقصود من الكلمتين «البحر» و«يام سوف» أو [البحر الأحمر]. فهل أن هاتين الكلمتين مترادفتان أو انهما تشيران إلى مدلولين مختلفين وعلى كل حال فلا بد أن يكون المقصود بـ[البحر القصبي] بحيرة صغيرة أو مستنقع نهري.

ا. اج. سايس

الفصل الأول

جنة عدن وطوفان نوح

جنة عدن وطوفان نوح

1 ـ «وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس»[1]. لقد تتبعت آثار الأنهر الأربعة التي ورد ذكرها في الفصول الأولى من سفر التكوين مبتدئاً من البقعة التي ذكرت التقاليد الإسرائيلية أنها كانت [أبواب الجنة] ومستعيناً بالخرائط والمستويات التي توضح طوبوغرافية البلاد، فظهر لي أن الفرات يدخل دلتاه من نقطة تقع على بعد بضعة أميال جنوب بلدة هيت عند «أبواب بابل» حيث تركت حملة كورش الصغير المؤلفة من عشرة آلاف جندي، الصحارى ودخلت السهول الدلتاوية المنتهية بالخليج العربي. والذي اطلق عليه السائر نحو الجنوب في اتجاه الفرات اسم [أبواب بابل] هو الذي سماه الاسرى اليهود الذين جيء بهم إلى سهول بابل، «أبواب الجنة».

2 ـ والحوادث التي ورد ذكرها في الفصول الأولى من سفر التكوين وقعت في أرض لا تجود سماؤها بالامطار، فكانت تعتمد كل أنواع الحياة فيها على الري الذي هو أقدم علم عرفه الإنسان. [الرب الإله لم يكن قد امطر على الأرض إلا أنه كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض][2] ومن البديهي أنه لا يمكن أن

---

(1) التكوين. الإصحاح الثاني: 10.

(2) التكوين. الإصحاح الثاني: 5، 6.

يؤمن الضباب المذكور، مهما كانت الحالة أولية، نمو الأشجار وبقاء الحدائق، فلا شك إذن في أن المراد بالكلمة الأصلية التي ترجمت بالضباب [الارواء السيحي] المقابل للارواء [برجل المرء][1] أو [الارواء بالواسطة]، وقد سألت الأستاذ المحترم سايس عن هذا الموضوع فاخبرني بأن هذه الكلمة لم ترد في أي مكان آخر في العهد القديم ومن المعقول أن يكون المقصود بها هنا هو [الري السيحي][2]. ولما كانت مصر والعراق، وهما أقدم البلاد المتمدنة في العالم، واقعتين على حافتي صحارى بلاد العرب فمن المظنون جداً أن تكون أقدم الأقوام التي استوطنت هذين القطرين إنما نزحت إليهما من بلاد العرب.

3 ـ وكان ظهور الجنس البشري على وجه الأرض أول مرة في مناطق حبتها الطبيعية بنعمة الغيث الوفير الذي يكفي لتغطية وجه الأرض بالعشب والغابات. وهذه الغابات هي التي كفلت بقاء الجنس البشري وحافظت عليه من خطر الوحوش الضارية المحدقة به، إذ كانت بمثابة الملاجئ الطبيعية التي تقيه عدوان هذه الوحوش وشرها. وكان تنازع البقاء المستمر في مثل هذه البيئة القاسية بالغاً أشده، فلم يكن لدى الإنسان الأول متسع من الوقت ليقوم بعمل أساسي في تقدم الحضارة. على أن الحالة تغيرت كثيراً عندما نزح الإنسان إلى الواحات الكائنة في الصحارى أو إلى السهول الواقعة على ضفاف الأنهار كالسهل الواقع بين عانة وهيت في أعالي الفرات، إذ اصبح في مقدور الإنسان في هذه البيئة الجديدة إبادة هذه الوحوش الضارية

---

(1) التنية. الإصحاح الحادي عشر: 10.

(2) راجع المقدمة.

التي أخذ عددها يتناقص نتيجة كفاح الإنسان لها بينما انعدم المورد الذي كانت تأتي منه في الصحراء. وكان القضاء على هذه الوحوش سبباً في أن يكون لدى الإنسان متسع من الوقت ليعمل في سبيل تمدنه وتقدمه العمراني. ويقصد بعبارة [عماليق أول الشعوب][1] العرب الذين كانت مساكنهم تمتد من مصب النيل[*] إلى هيت الواقعة على الفرات. وقد فاه بهذه العبارة الكاهن الوثني الذي كان يسكن الفرات والذي كان استعراضه لأحوال العالم الآسيوي الغربي وديانته مصدر وحي لبني إسرائيل[2].

لم يترك لنا العرب القدامى الذين سكنوا الخيام واتخذوا آنيتهم من الطين من الآثار ما تركه لنا المصريون والبابليون ولكن بلاد العرب قذفت من أعماقها المحرقة بأبنائها الأشاوس الذين كانوا أول من أخضع سهول النيل والفرات. ومن السهل معرفة السبب الذي من أجله تفوق **سكان سهول الفرات على منافسيهم سكان سهول النيل وذلك لأن كل شيء في مصر سهل يمكن الحصول عليه بدون جهد وعناء؛ فالنيل (ملك الأنهر) كان ولا يزال يجري ويفيض على غاية من الانتظام والوقار وهو يحمل في كل عام كميات معتدلة من الترسبات ولاجل هذا فإنه لا يخلق للذين يسكنون ضفافه مشاكل صعبة. وأرض مصر، جنة الله، خصبة جداً، وذات مناخ رائق في الشتاء، ومعتدل في الصيف، لهذا كله فإن مصر لم تنتج أفكاراً عالمية ولم يكن بين ابنائها من اتصف بالنظرة الواسعة بحيث تكون له**

---

(1) العدد. الإصحاح الرابع والعشرن: 20.

(*) يقع نهر النيل في محافظة بابل (الحلة). (م.شبّر)

(2) ميخا. الإصحاح السادس 5، 8.

عيون تحدق من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء. أما الحالة في العراق فتختلف عن مصر كثيراً؛ فالسيول الجارفة التي تملأ حوض دجلة والفرات في موسم الفيضان يحتاج التغلب عليها وضبطها إلى قوة خارقة. ثم إن أراضي العراق خصبة جداً إلّا أن شتاءه قاس جداً في حين أن الصيف فيه شديد الحرارة، وطويل الأمد، ونسبة الفرق في درجة الحرارة في الظل كنسبة الفرق بين 20 درجة و120 فهذه المدرسة القاسية التي نشأ فيها سكان بابل هي التي أوجدت فيهم هذا الارهاف في الحس والقابلية الفكرية العظيمة.

4 ـ وعندما اتجه الساميون القدماء (أو الاكاديون كما كانوا يسمون أنفسهم)، اسلاف عرب الشمال، وفي ضمنهم بنو إسرائيل، إلى الفرات تاركين وطنهم الأصلي الذي تتوفر فيه الأمطار الموسمية المنتظمة ودخلوا السهول الواقعة في شمال بلاد العرب، كانت الواحة الأولى التي واجهوها في طريقهم هي البقعة الكائنة بين عانة وهيت. والفرات في هذه المنطقة يمر اليوم بسلسلة من الشلالات غير المنتظمة فيستخدم التيار المتكون منها في تدوير النواعير الكبيرة التي ترفع المياه فتسقى الوادي الضيق الذي ينتهي بالصحراء. وقد كانت هذه البقعة ولا تزال ملأى بالحدائق والبساتين تتخللها حقول الذرة أو القطن. وليس هذا بالأمر الغريب فالحياة والرخاء يتوفران حيث تتوفر المياه. واليوم بعد هبوط تلك الشلالات ـ ذلك الهبوط الذي لاحظ نموه المطرد كتّاب عصر أوغسطين ـ أصبح من الضروري الاستعانة بالنواعير في ارواء تلك البساتين والحدائق. وتدل الطبقات الرسوبية التي نلاحظها في النهر فوق منسوب أعلى الفيضانات الحالية إن المياه كانت منذ زمن غير بعيد تؤخذ بالطريقة السيحية من مقدم الشلالات فتروي بها البساتين التي كانت واقعة جنوب هذه الشلالات

والتي كانت بعيدة عن اخطار الفيضان. هكذا كانت جنة عدن الوارد ذكرها في العهد القديم. واليوم عندما ننحدر في اتجاه الفرات فأول شيء نواجهه في هذه البقعة هو النخل ذلك الشجر الذي يعتبره العالم العربي بأجمعه حتى أيامنا هذه، رمزاً للحياة. (ومن الجدير بالملاحظة إن العادة المتبعة في جميع بلاد العرب هي أن من يغرس نخلة فإنه يكون مالكاً لها حتى ولو كان هذا الغرس في أرض تعود إلى غيره أو في أرض ملكيتها عامة) وكانت هذه البقعة الممتدة من الفرات إلى دمشق ملأى بحقول الحنطة الكثيفة التي كانت تنمو بطبيعتها.

5 ـ استهدفت اثناء إقامتي في العراق مدة ثلاث سنوات، دراسة نهر الفرات من منبعه إلى مصبه لأصل إلى معرفة مكان الجنة التي يمكن تأمين وصول المياه السيحية إليها خلال الاثني عشر شهراً من السنة[1] فظهر لي أنه لا يوجد في المنطقة الواقعة جنوب هيت مكان يمكن أن تتوفر فيه الشروط المذكورة سوى الأراضي المستصلحة في منطقة الأهوار قرب الخليج العربي، جنوب الناصرية، بجوار مدينة «اريدو» القديمة حيث كانت عدن السومريين التي سنتكلم عنها بعد قليل. والدليل على ذلك أن الأراضي الواقعة بين هيت وبين منطقة الأهوار التي تبدأ بمدينة الناصرية شمال مدينة أور الكلدانية لا يمكن ان تؤمن لها الحياة الزراعية المستديمة طول السنة في ذلك الوقت لأن القسم المنخفض منها كان يسقي سيحاً في فصل الصيف بسبب هبوط مستواه بالنسبة إلى منسوب ماء النهر. أما في فصل الشتاء فإنه يصبح معرضاً لخطر الفيضان. والقسم الذي لا تصله المياه إلا في

(1) التكوين. الإصحاح الثاني: 6.

موسم الفيضان بالنظر لارتفاع مستواه بالنسبة إلى مستوى النهر فإنه لا يمكن ان تؤمن له المياه المطلوبة للزراعة في فصل الصيف. وعلى هذا فإننا إذا سرنا جنوب هيت فإننا لا نجد منطقة تصلح للارواء المستديم طول العام حتى نصل إلى منطقة الاهوار المذكورة.

6 ـ (وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة ومن هناك ينقسم أربعة رؤوس)[1] **وكانت هذه الجنة حديثة غناء مليئة بالنخل الذي لا يزال يعتبر حتى يومنا هذا شجر الحياة كما أنها كانت مليئة بأشجار الكروم، أشجار المعرفة التي حرم أكل ثمرها[2]. والتربة والمناخ هنا يصلحان بطبيعتهما لنمو الأشجار المثمرة على اختلاف أنواعها. كالنخل وشجر البرتقال والخوخ والاجاص. غير إن النخل يعتبر من أهم ما تنبته هذه الأرض وذلك لأن زراعته لا تحتاج إلى جهد كبير كما يقول المثل «اغرسه في الماء واتركه فهو ينمو بطبيعته»**. وينقسم النهر جنوب جنة عدن إلى أربعة فروع رئيسه، يسمى الأول «فيشون»[3]. ويشمل هذا منخفض الحبانية وأبي دبس الواقعين بين الرمادي وكربلاء واللذين تغمرهما مياه الفيضان. وكان الاعتقاد السائد قديماً إن هذين المنخفضين متصلان، ولكن المسح والتسوية اللذين اجريا أخيراً اثبتا خلاف ذلك. وقد وضعت تصميماً لربط هذين المنخفضين واستخدامهما كمخرج لسحب المياه الزائدة اثناء الفيضان وتخليص البلاد من اخطار الغرق. وبمقتضى هذا التصميم يمكن أيضاً خزن هذه المياه الزائدة للاستفادة منها لأغراض الري. وقد بوشر بتنفيذ هذا

(1) التكوين. الإصحاح الثاني: 10.
(2) التكوين. الإصحاح الثاني: 17.
(3) التكوين. الإصحاح الثاني: 11.

المشروع. وكان البابليون يعتقدون أن نهر «فيشون» هذا يشمل كل «أرض الحويلة» وهي المنطقة الواسعة التي تمتد من حدود مصر إلى بلاد آشور وذلك لأنهم شاهدوا في جوار هذه المنخفضات مئات من الأميال المربعة من الصحراء وهي مغطاة بالماء فظنوا إن المياه تمتد إلى مسافات طويلة في جزيرة العرب. ويرى الناظر اليوم في هذه المنطقة طبقات كثيفة من المحار «الصدف الفراتي» تغطي وجه الأرض من حدود النهر إلى مسافة تبلغ خمسين ميلاً داخل حدود الصحراء.

7 ـ والنهر الثاني جيحون[1] ـ نهر الهندية الحالي ـ وهو «نهر خابور» الذي دفن النبي حزقيال[2] في إحدى ضفتيه. وقد اطلق عليه في سفر عزرا[3] اسم (اهورا) أما في زمن الاسكندر فكان يسمى (بالاكوباس) وكان يسمى في أوائل عهد الخلافة الإسلامية نهر الكوفة. وهذا النهر يشمل كل منطقة كوش أبي نمرود[4] الذي تبدأ مملكته في بابل وارخ واكاد وكالته الواقعة في سهل شنعار. وكان يطلق اسم (كوش) في زمن موسى على بابل. أما في عصر الأنبياء فكان يطلق هذا الاسم على (اثيوبيا) ولا شك أن «جيحون» كان يشمل كل أراضي «كوش» في زمن موسى وقد حكم الكوشيون هذه الأراضي مئات من السنين.

8 ـ والنهر الثالث كان يعرف باسم «حداقل»[5] و «دقل» و«دجلة»

---

(1) التكوين. الإصحاح الثاني: 13.
(2) حزقيال. الإصحاح الأول: 1.
(3) عزرا. الإصحاح الثامن: 15.
(4) التكوين. الإصحاح الثاني: 8، 10، 13.
(5) التكوين. الإصحاح الثاني: 14.

وهو فرع الصقلاوية الحالي. ويبلغ عرض هذا النهر 250 قدماً أما عمقه فيبلغ 25 قدماً. وهو يشبه في جريه وضع القناة التي تدير الطاحونة. أما اتجاه جريه فإنه ينحدر أولاً نحو منخفض عقرقوف ثم يمر من هناك فيصب في دجلة قرب بغداد. وهذا النهر لو ترك وطبيعته فإن في أمكانه ان يزود دجلة بأكثر من نصف مياه الفرات. ولا شك ان الأقدمين كانوا يعتبرونه المنبع القديم لدجلة. أما اعتقاد البابليين «بأنه الجاري شرقي آشور» فهو في الحقيقة وصف مطابق للواقع تماماً.

9 ـ والنهر الرابع الفرات. وهذا النهر غني عن التعريف فهو نهر بابل نفسه[1].

10 ـ وكان نقل البابليون المستعمرون اسم دجلة البابلي معهم إلى نينوى[2] كذلك أطلقوا بلا شك بعد مضي أزمنة طويلة اسم نهر بابل على المجرى العظيم الذي كانت ضفافه مهداً للجنس البشري. فكان هناك اسمان لنهرين أحدهما الفرات والآخر دجلة.

11 ـ سبق لي أن ذكرت أن مستوى الماء في المنطقة الواقعة بين عانة وهيت قد هبط في الخمسة الآلاف أو استة الآلاف سنة الأخيرة حتى اصبح من المتعذر ارواء الجنائن الواقعة في تلك السهول بطريقة الري السيحي كما كان الحال سابقاً، وغدا من الضروري استخدام النواعير لتأمين ارواه تلك الأراضي القديمة. أما الهبوط الذي حصل في مستوى الماء في دجلة فكان عظيماً وفجائياً، فقد بلغ في شمال سامراء أربعين قدماً في الخمسمائة سنة الأخيرة وبذلك تحولت

---

(1) التكوين. الإصحاح الثاني: 14.

(2) التكوين. الإصحاح العاشر: 11.

الجنائن الخضراء التي كانت تروي في هذه المنطقة إلى صحاري قاحلة.

12 ـ ويرمز بآدم إلى الذكور من البشر، ويرمز بحواء إلى الإناث منهم، كما يرمز بقابين إلى طبقة الفلاحين وهابيل إلى طبقة الرعاة. وهذه هي الطريقة الشرقية في تسجيل الحقائق أو سرد الحوادث فقولهم «كوش ولَدَ نمرود»[1] معناه ان الأسرة البابلية اعقبت الأسرة الكوشية أو ان نهر بابل اعقب نهر كوشا المتشعب من الفرات. فلو أردنا أن نعبر عن استقلال الولايات المتحدة بلغة العهد القديم لكان علينا أن نقول: «ان جورج الثالث ملك انكلترا ولَدَ جورج واشنطن الذي ابتدأت دولته في بوستون ونيويورك وفيلا ديلفيا وسافا».

13 ـ وسأوضح هذا بذكر مثالين: لقد سألت مرة صديقاً مصرياً لي عن السبب الذي من أجله صار المصريون يحتقرون السوريين بهذه الدرجة الشديدة فأجابني الصديق بسرد هذه القصة قال: «توفي أحد السوريين فجاء ملائكة الموت وجلسوا إلى جانب رأسه ورجليه وسألوه عن اسمه فأجابهم أنه يدعى «حداد» فاستنكر الملائكة هذا الاسم وقالوا انهم لم يسمعوا قط باسم حداد أو بدّاد، فأحالهم ذلك السوري على أبينا آدم. ولما ذهبوا إلى آدم أظهر هذا جهله بالأمر وأحالهم على الشيطان. بيد ان الشيطان لما علم بأن الميت سوري وان آدم لا يعرف عنه شيئاً وأنه أحال الأمر إليه أجاب قائلاً: ما أسوأ آدم لقد أخرجني من الجنة وأدخلني النار والآن يريد أن يرد إليَّ مصير جميع السوريين» لم يتغير الشرق اليوم كثيراً عما كان عليه في السابق ويظهر من سفر التكوين ان المصريين كانوا يمقتون الرعاة

(1) التكوين. الإصحاح العاشر: 8.

السوريين والعرب معاً مقتاً شديداً. وكلمة حداد تعني من يشتغل بالحدادة. أما كلمة بداد فمعناها ابن الحداد. وقد سألت صديقاً آخر لي كانت له أكثر من زوجة واحدة هل يعتقد أن الرجل الذي له ثلاث زوجات أو أربع يكون محبوباً من زوجاته جميعاً كالذي له زوجة واحدة فقط؟ فأجابني بسرد القصة التالية قال: «كان حسن المسكين يعالج سكرات الموت فدعى زوجته التي كان يحبها كثيراً وقال لها: فاطمة، إني أموت مطمئناً إذا قطعت لي عهداً ألا تتزوجي بعد موتي بسليمان فهو رجل رديء وسيجعل حياتك شاقة جداً. فأجابته الزوجة: يمكنك يا زوجي العزيز أن تموت مطمئناً لأني قطعت على نفسي عهداً بأن أتزوج باسماعيل في اليوم الذي يختارك الله فيه إلى جواره».

14 ـ وكان أوائل السكان الساميين المتحضرين الذين استوطنوا البقعة المحصورة بين عانة وهيت، يعتمدون في حياتهم على الري. ولكن هبوط الشلالات في تلك المنطقة حرمهم من المياه التي كانت تروي جنائنهم واستحالت أراضيهم الزراعية إلى صحارى قاحلة فاضطروا إلى مغادرة ديارهم والاتجاه شرقاً. غير أنهم لم يجدوا سوى منطقة مليئة بمنابع القار والنفط وهي منطقة محرقة وموحشة تقع شرق مدينة هيت وقد تراءت لهم هذه المنطقة كأنها أصيبت بلهيب سيوف سيرافيم المغاظ[1].

15 ـ والدرس الحقيقي الذي يجب ان يتعلمه الإنسان من هبوط تلك الشلالات وتحول الأراضي الخصبة المجاورة لها إلى صحارى قاحلة واضطرار السكان إلى الهجرة ـ هذا الدرس لفت إليه نظري

(1) التكوين. الإصحاح الثالث: 24.

شيخ عربي كبير السن كان يقطن في الصحراء الواقعة غربي العراق. فقد حدث ذات مرة إني ذهبت في ساعة متأخرة من الليل إلى زيارة أخذ مضارب خيام البدو هناك فسرت تواً نحو خيمة الشيخ الذي رحب بي عندما علم إني انكليزي وقال لي: أنه يحب أساليب الانكليز فقلت له: أي أساليبهم تعني؟ فوضع يده على حزمة كبيرة من الجرائد العربية التي كانت مكدسة إلى جانبه، وسألني عما إذا كنت استطيع قراءة عنوان الجريدة فقلت له أنها جريدة المؤيد التي تصدر في القاهرة فقال: نعم، أنني لا أحسن القراءة ولكن هنا بين أفراد القبيلة رجل يحسنها وهو يشرح لنا ما في هذه الجرائد. فهذه صحيفة طبعت في القاهرة ـ المدينة التي يحتلها الجيش البريطاني ـ والصحيفة مشحونة بسب الانكليز ونقد أعمالهم وهم مع ذلك يسمحون بطبعها وانتشارها بين الناس فلو أن كاتباً عراقياً نقد أعمال الأتراك كما ينقد المصريون أعمال الانكليز لكان مصيره السجن المؤبد. لماذا لا تأتون أيها الانكليز إلى بلادنا هنا فتعلموننا الحرية؟ فقلت له: «لا فائدة في ذلك أيها الشيخ، لقد بقينا في مصر نحو ثلاثين عاماً ولكن البلاد من أدناها إلى اقصاها تريد أن نخرج منها فلو جئنا إلى العراق فانكم لا تلبثون بعد عشرين عاماً أن تسأموا منا ثم تحاولوا بعد هذا اخراجنا من البلاد». فحرك الشيخ لحيته وقال: «نعم، ألسنا جميعاً أبناء آدام؟ لقد ظن أنه يستطيع ان يجد مكاناً أفضل من الجنة».

16 ـ والساميون كجميع الشعوب القديمة يسمون أنفسهم أبناء الآلهة[1] وقد اصطدموا في رحلتهم هذه بأبناء الإنسان الذين كانوا قد احتلوا دلتا الرافدين السفلى وكان في جملة أبناء الإنسان هؤلاء بعض

(1) التكوين. الإصحاح السادس: 2.

أفراد قد تلوثت أيديهم بالدم بحيث لم يكن يسمح لهم بالبقاء في خيام قبيلتهم وقد اتخذ أبناء الإنسان وهم المعروفون بالسومريين أول موطن لهم في منطقة الأهوار قرب الخليج العربي ثم نزحوا إلى الشمال في الوقت الذي بدأ فيه الساميون ينزحون إلى الجنوب.

17 ـ ولما انحدر الساميون إلى أسفل نهر الفرات احتل الفلاحون منهم الذين يرمز إليهم بقايين الأراضي القريبة من النهر وأنشأوا لحمايتها من الغرق سدوداً موازية له[1]، وأخذوا يزرعون الحنطة والشعير كما يفعل الفلاحون اليوم. أما الرعاة منهم الذين يرمز إليهم بهابيل فقد انتشروا في السهول البعيدة عن النهر وأخذوا يغذون ماشيتهم بالأعشاب والحشائش الطبيعية التي تنبتها تلك السهول. فكان حدوث أية ثغرة في السدود يسبب كارثة عظيمة لقايين لأنها تؤدي إلى أغمار مزارعه بالمياه. في حين أن هذه الثغرة تعود على هابيل بالفائدة لأنها تؤدي إلى ارواء المراعي التي يرعى بها ماشيته. ولهذا استمر النزاع بين الأخوين مدة أجيال. ففي سني المحل الشديد كانت نفس هابيل تغريه بكسر السدود وذلك لتأمين العشب لأغنامه، بينما كان هذا العمل يؤدي إلى تخريب حقول أخيه قايين. ويدل على استمرار تلك الخصومة بين الطرفين ـ بسبب تخريب السدود من حين إلى آخر ـ ما ورد في العهد القديم من ان الله كان يقبل قرابين هابيل ويزدري بقايين وقرابينه[2]. ويظهر ان ذلك النضال بين الأخوين بلغ شدته فظن قايين مرة أن أخاه قام بسكر السدود فعدا عليه ودنس يده فقتله. وقد كان غضب الرب لهذا الجرم عظيماً بدليل أنه وضعت

---

(1) التكوين. الإصحاح الرابع: 2.

(2) التكوين. الإصحاح الرابع: 4 و5.

علامة لقايين وذلك لكي لا يثأر منه أولياء القتيل[1]. وكانت هذه العلامة، على وجه العموم سمة، ولكنها كانت سمة مباركة في بلد كانت التقاليد المؤلوفة فيه تقضي بأن يتتبع أولياء القتيل، في الظروف الاعتيادية، القاتل فيذبحونه وقد اتجه الفلاحون بقيادة زعيمهم قايين إلى جهة الشرق نحو مضارب السومريين حيث كان لهم هناك مجال في الزراعة أوسع من ذي قبل.

كنت قد ذكرت سابقاً ان **الخصومة بين الفلاحين من جهة والرعاة من جهة أخرى قديمة قدم العداوة بين قايين وهابيل.**(*) وفي حوالي الخامس من شهر مايس سنة 1909 حين كان الفيضان في نهر الفرات بالغاً أقصى حدوده لاحظت، وأنا متجه إلى أعلى الفرات سالكاً الضفة اليسرى بين الرمادي وهيت، أكثر من خمسين قطيعاً من الغنم يبلغ كل قطيع منها لمائتين تقريباً تسير في الوادي خارجه من المنطقة الصحراوية. وكان ظهور هذه القطعان سبباً في ألقاء الرعب والفزع في نفوس الزراع. وعند رجوعي في اليوم التالي سالكاً طريق النهر بوساطة سفينة سمعت صوت اطلاقة رصاصتين الواحدة تلو الأخرى وشاهدت على بعد مسافة عدداً كبيراً من الفرسان والمشاة يهرعون إلى محل الحادث، بعضهم يحمل المساحي وبعضهم الآخر يحمل البنادق وكانوا على استعادة لمكافحة أولئك الرعاة البدو أو لدفع خطر الفيضان.

ولما اجتمعت بأحد أكابر الشيوخ قلت له: لماذا لا تقسمون الأراضي بينكم فتغمرون قسماً منها بالمياه وتتركون القسم الآخر

---

(1) التكوين. الإصحاح الرابع: 15.

(*) صراع الحضارة والبداوة. (م.شبّر).

لزراعة الحنطة والشعير؟ قال لي: أنّا لا نستطيع أن نتفق فيما بيننا ولكنا نتمنى أن تحل في البلاد بعض الأنظمة والقوانين محل هذه الضغائن المستمرة بيننا وأضاف قائلاً: إذا سنت في البلاد قوانين عملية فان الزراع، وهم الأكثرية الساحقة في هذه البلاد، سيصرون على احترامها.

18 ـ والري هو الذي علم الناس النظام وأحترام القوانين، فلا غرابة إذن ان تكون السهول الزراعية الواقعة على ضفاف الأنهار الكبرى للعالم القديم، مهداً لجميع الحضارات القديمة للعالم وذلك لأنه يستطيع الإنسان غير المتمدن ان يعيش في الغابات، ويستطيع الإنسان الذي لم يأخذ بحظ كبير من المدينة ان يعيش في الواحات الصحراوية، ولكن الإنسان الذي يعيش في أرض يتوقف نظام الحياة فيها على الري يتحتم عليه أن يخضع للنظام وأن ينقاد للقانون والأوامر. ولهذا لم تظهر المدنية الحقيقية إلى الوجود إلا بعد ان ارغمت مئات وألوف من الأسر على أن تتعلم لأول مرة قوانين الطبيعة وتراعي تطبيقها ويتضامن الأفراد فيما بينهم بحيث يتعاون كل فرد مع الآخر ليضمنوا الري والمبازل لأراضيهم. والنتيجة الطبيعية لعدم خضوع الأفراد للقانون والأوامر في بلد زراعي، تظهر بجلاء ووضوح كما وصفها سفر التكوين: «فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي. لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم. فها أنا مهلككم مع الأرض. اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر»[1].

ومن هنا يبدأ وصف أول طوفان عظيم حدث في وادي الفرات. ولا شك إن أقدم سكان وادي النيل قد شاهدوا طوفانات عديدة ولكن

---

(1) التكوين. الإصحاح السادس: 13.

النيل لا يندفع في طغيانه ذلك الاندفاع الذي نجده في نهر الفرات ولهذا لم يعلم سكانه دروساً قاسية بالصورة التي أعطتها الأنهر التي تقطع سهل شنعار.

19ـ وكان السومريون، كما رأينا، أول من سعى في أحياء الأراضي التي تتألف من السهل المنخفض الواقع في الجنوب قرب ملتقى النهرين. وقد أدت هجرة الساميين من الشمال إلى انشاء وطن لهم في القسم الشمالي أو الأعلى من الوادي، كما كانت سبباً في حصول تضارب شديد بين مصالح الطرفين. وبهذا صار العالم، حسب لغة سفر التكوين[1]، مملوءاً بالعدوان والظلم. والآن أخذت مياه الفيضان في الفرات ودجلة تنحدر من المنبع بقوة خارقة فتملأ حوضيهما، ثم أخذت تغمر الضفاف بشكل لا يعرفه سكان وادي النيل ولهذا كانت المجاعة التي وقعت في وادي النيل في عصر يوسف لا يمكن حدوثها في دلتا الرافدين كما أن طوفان نوح لا يمكن وقوعه في مصر. والسبب في مضاعفة اخطار الفيضان في نهري الفرات ودجلة راجع إلى شدة انحدار الأراضي في العراق بالنسبة إلى انحدارها في وادي النيل إذ يبلغ انحدار الأرض في وادي النيل قدماً واحداً في كل ميل، بينما نراه في أرض الرافدين يبلغ خمسة أقدام في الميل الواحد. وهذا الانحدار الشديد في أراضي العراق ترك انطباعاً في ذهنية النبي حزقيال الذي كان أسيراً في بابل مدة طويلة فقال في وصفه ما يلي:

20 ـ «وعند خروج الرجل نحو المشرق والخيط بيده قاس ألف ذراع وعبرني في المياه والمياه إلى الكعبين ثم قاس ألفاً وعبرني في

---

(1) التكوين. الإصحاح السادس: 13.

المياه والمياه إلى الركبين. ثم قاس ألفاً وعبرني والمياه إلى الحقوين. ثم قاس ألفاً وإذا بنهر لم استطع عبوره لأن المياه طمت مياه سباحة نهر لا يعبر»[1] فهذا وصف لانحدار خمسة أقدام في الميل الواحد. أما ما أمتازت به هذه البقعة من وجود أشجار كثيرة مرصوفة على حافة النهر ووجود أسماك كثيرة في المياه والبقعة الملآنة بالعظام اليابسة، فكل هذه الأمور إنما هي من خصائص وادي الفرات في البقعة المجاورة لقبر النبي حزقيال[2].

21 ـ وفي الوقت الذي كانت فيه عملية إحياء الأراضي تتقدم من الشمال كانت الجماعات السامية قد بدأت أعمالها الجريئة لتنظيم حالة الري هناك فقامت بانشاء السدود الترابية في بعض فروع الأنهر لقطع المياه عنها. وإذا حكمنا انفسنا مسترشدين في ضوء التصاريف والمستويات امكننا ان نقول أن أول سد ظهر من هذا النوع هو السد الذي أقيم في صدر نهر حداقل أو نهر الصقلاوية الحالي. فهذا السد هو الذي عبرت عليه بعد سنين عديدة جيوش كورش الصغير ومنه تقدمت لمقابلة جيش ارتا كسر كيس في معركة كوناكسا على أن ارتا كسر كيس هذا قام بتخريب السد المذكور بعد ان عبرت عليه جيوش كورش وهكذا انقطع طريق الرجعة عن جيوش كورش وزينوفون المنكسرة فاضطرت إلى عبور نهر دجلة والانسحاب شمالاً إلى البحر الأسود. وهذا السد هو الذي خربه الأتراك في ربيع سنة 1917 عندما اضطروا إلى الانسحاب من بغداد إلى أعالي وادي الفرات إلا أنه أعيد انشاؤه في السنة نفسها. والصراع بين الجماعات المختلفة

---

(1) حزقيال. الإصحاح السابع والأربعون: 3، 5.

(2) حزقيال. الإصحاح السابع والثلاثون: 2.

والنتائج المريعة التي يمكن ان تترتب عليه هي التي ألقت الرعب في نفوس بعض المفكرين الذين كان نوح أحدهم[1]. فقد خاف نوح عاقبة الأمر فتهيأ لمجابهة الحدث الرهيب الذي ينتظره فصنع لنفسه فلكاً من خشب الحور الذي تكثر أشجاره على ضفاف الفرات وطلى كلا وجهيها الداخلي والخارجي بالقار المستخرج من هيت على الطريقة التي تطلى بها «الكفة» اليوم في الفرات. ويشعر سكان الأقسام الواطئة من الدلتا بقوة الفيضان في صورة ظاهرة وذلك لهبوط مستوى الأرض الصحراوية هناك وخاصة بعد أن أقيم السد الترابي في صدر الصقلاوية ذلك السد الذي ضاعف من تصريف مجرى الفرات. يضاف إلى ذلك كثرة مياه الأمطار التي تسقط في الوادي نفسه[2]. وبعد أن أقيم هذا السد أخذ مستوى الماء يرتفع إلى أربعة وعشرين قدماً بعد أن كان لا يزيد على ستة عشر قدماً في الفيضانات العالية الاعتيادية[3]. ولم يقتصر أثر هذا الفيضان على أغمار الأراضي الزراعية فحسب ولكنه شمل الأراضي الصحراوية أيضاً. ومما يجب الانتباه له أنه لم يكن يفهم سكان وادي الفرات ولا سكان وادي النيل من لفظة «كورة» القديمة، التل. كما أنه لا يفهم هذا المعنى من لفظة «جبل». فكلا هاتين اللفظتين تدلان على الصحراء لا الجبل بمعناه الحقيقي وذلك لأنه لا يمكن أن يغمر الماء البالغ ارتفاعه أربعة وعشرين قدماً أرضاً عالية أو جبلا بالمعنى الصحيح. نعم يمكن ان يغمر هذا القدر من الماء السهول الصحراوية فقط. فالمقصود على هذا من عبارة «خمس عشرة ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت

---

(1) التكوين. الإصحاح السادس: 14.

(2) التكوين. الإصحاح السابع: 11.

(3) التكوين. الإصحاح السابع: 20.

الجبال»[1] هو «خمس عشرة ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الأراضي الصحراوية» وهذا الخطأ ناشئ من ان المترجمين العبريين الذين نقلوا العهد القديم إلى اللغة العربية لم يفهموا المعنى المقصود من هذه الكلمة، شأنهم في هذا شأن المترجمين المحدثين الانكليز.

22 ـ وفي السنين الأولى من الاحتلال عندما كنت اتجول في مصر العليا طالما كنت اسأل عما إذا كانت انكلترا تأخذ في الارواء بالنظام الحوضي أو بنظام المجاري. وعندما كنت اجيبهم بأنه لا يوجد في انكلترا ري مطلقاً كان التعليق على ذلك «إذن كيف يعيش الناس في الجبل» (أو بلغة المصريين «كبل»)؟ ويقصد بكلمة «جبل» أو «گبل» في اللغة العربية الفصحى كل مرتفع سواء أكان تلا بسيطاً أو جبلاً شاهقاً. ولكن في اللغة المصرية العامية وفي بلاد العرب نفسها تطلق هذه الكلمة على «الصحراء». أما في مصر اليوم فإن كلمة «ريف» يراد بها السهول الزراعية، وما عداها فتطلق عليه كلمة «جبل» أو «گبل» ويدخل في ذلك الصحراء والسهل والتل والجبل العالي. وصادف إني عندما كنت مديراً عاماً لتقدير ضريبة الأرض في مصر أن قمت بذرعة أرض مزروعة لتحديد مقدار الضريبة المفروضة عليها، وكان في وسط تلك الأرض قطعة عالية غير مزروعة، تبلغ مساحتها ايكرين ويبلغ ارتفاعها أربعة أقدام. فلما اقترحت طرح هذه المساحة الصغيرة غير المزروعة من مجموع مساحة الأرض المخمنة قيل لي: نعم، يجب ذلك لأنك لا تستطيع أن تفرض ضريبة على الجبل. وقد ذكرت هذه القصة للكولونيل رمزي المقيم البريطاني في بغداد والمستر وان ايس عضو البعثة التبشيرية في البصرة اللذين كانا معي

(1) التكوين. الإصحاح السابع: 20.

في رحلة على ظهر زورق صغير في أهوار مدينة النجف، فاتفقنا على ان نتحقق ما إذا كان هذا الاصطلاح ينطبق على العراق أيضاً. فلما اقتربنا من الشنافية لاحت لنا من بعيد أراض صحراوية واطئة فسألت الملاحين عنها فقالوا في الحال: أنها «الجبل» وفي الحقيقة لم تكن تلك الأراضي أكثر من تل بسيط وربما كانت لا تشبه الجبل أكثر من شبه تل «لودكيت» به.

23 ـ ظهرت فلك نوح عائمة على سطح الماء أول مرة في إحدى المدن التي كانت موجودة في تلك الأيام في الفرات الأدنى (في فرع نهر كوش المندرس اليوم) فسارت إلى جهة الجنوب الشرقي مدفوعة بقوتي تيار الماء والرياح المندفعتين من الشمال والشمال الغربي. وكانت مياه نهر دجلة القديم تأتي من الشمال مدفوعة بقوة التيار فتلتقي بمياه الفرات في أور الكلدانيين. فلا بد أن يكون التيار قد جرف الفلك بعد أن وصلت إلى هذا المكان فدفعها إلى المنطقة الصحراوية الواقعة جنوب مدينة أور القديمة. وهنا نجد تارح أبا إبراهيم ونجد معه نظام الأسرة ذلك النظام الذي يوكل فيه الحكم إلى أكبر الأفراد، فتستقر الأسرة وتتوطن في مكان خاص. غير إن ولع إبراهيم بالأسفار والتنقل ذلك الولع الذي اكسبه لقب «عبري» جعله يشذ عن هذا النظام.

24 ـ وقد لاحظت عندما كنت في أور الكلدانيين أن العرب يطلقون على المرتفعات الواقعة جنوبي أور كلمة (نواس) في حين أن كلمة نوه في العربية تطابق كلمة (نوح) العبرية.

25 ـ ويدعى الجبل الذي رست عليه السفينة «ارارات»[1] وعندما نزح أحفاد تلك الأسر العبرية إلى الشمال وأسسوا وطناً جديداً هناك

---

(1) التكوين. الإصحاح العاشر: 2.

اطلقوا اسم «ارارات» على أعلى جبل رأوه في تلك المنطقة، كذكرى للبقعة التي كانت قد رست عليها السفينة. فالجبل الذي في بلاد ارمينيا اليوم والذي يطلق عليه اسم ارارات لا صلة له بجبل ارارات القديم الذي رست عليه السفينة أكثر من صلة نيويورك بيورك.

26 ـ والذي جعل الأقوام القديمة الذين نقرأ أخبارهم في سفر التكوين يعتقدون ان الطوفان لم يكن مقصوراً على أراضي الفرات ودجلة ودلتاهما، وأنه كان طوفاناً عاماً شمل كل العالم، هو أنهم رأوا أن كتلا كبيرة من الناس الذين يسكنون في البلاد المجاورة للوادي، أخذوا يهجرون أماكنهم ويلتجؤون إلى هذا الوادي بعد أن أعيد إليه النظام والأستقرار من جديد فلم تكن لديهم وسيلة لتفسير ذلك غير غرق العالم. ثم أنه لم يكن لديهم تعليل لاختلاف لغات سكان هذا الوادي، ذلك الاختلاف الذي ظهر فجأة، سوى أنه ألهام من الله أراد أن يحقق به مطامح البشر في الحياة «وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون ان يعملوه. هلم تنزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض»[1].

27 ـ والصورة التي رسمها العهد القديم للطوفان مأخوذة بحذافيرها من القصص السومرية القديمة ولكن هذه القصص السومرية تمتاز عن التوراة في وصفها للظواهر الطبيعية، في حين ان العهد القديم يمتاز عن الألواح البابلية في تصويره لفكرة الإله كما يمتاز تمثال الملك رعمسيس عن تمثال أحد أفراد شعبه.

---

(1) التكوين. الإصحاح الحادي عشر: 6.

28 ـ لقد سئم سكان دلتا الفرات من الفوضى والاضطراب الذين سادا في البلاد وأصبحوا في وضع يرحبون فيه بأي شخص قوي يستطيع أن يعيد الأمن والنظام إلى نصابهما في بلد لا تستطيع أن تحيا بدون الأمن والنظام. وأخيراً وجدوا ضالتهم المنشودة في شخص «نمرود الجبار»[1]. واليوم يجابه سكان العراق الموقف نفسه. فقد شاهدت ثمانمائة فلاح مسلح من العرب ممن تطوعوا لمساعدة الحكومة في استتباب الأمن. ويوجد في كل أسرة عربية كاسرة اسحق مثلاً بعض أفراد يميلون إلى السلم كيعقوب كما يوجد فيهم بعض أفراد أخر يميلون إلى غير ذلك كعيسى البدوي. ولا توجد لدى الزراع اليوم في العراق فرص ملائمة تمكنهم من الاستقرار وذلك لأنهم عندما يتخذون أرضاً يستوطنون فيها سرعان ما يداهمهم فيضان قوى يضطرهم إلى التخلي عنها والتيه في الصحارى. فلو أمكن التغلب على اخطار الفيضانات وبدئ بتأسيس مشاريع عملية للري المنظم لاصبح عدد الأفراد الذين يحافظون على النظام أكثر من الذين يعادونه، كما إن السكان يبدأون يميلون إلى الجد أكثر من ذي قبل.

29 ـ وما دامت أراضي الدلتا في العراق معرضة لاخطار فيضانات الأنهر، وليس فيها مشاريع ري منظمة، فإن سكانها الحاليين سيظلون محتفظين بكثير من خصائص ذلك الشعب الذي اندفع من الشمال ودخل تائهاً سهل شنعار، حيث فرضت ـ على الارجح ـ عليه الزراعة ليسد بها حاجات أفراده الكثيري العدد. ولقد صرح لي الأمير خزعل شيخ المحمرة بهذه الحقيقة حين قال: إن العرب إنما يرغبون اليوم في إدخال أساليب الري الحديثة في بلادهم لا لأنهم يميلون

(1) التكوين. الإصحاح العاشر: 8.

بطبيعتهم إلى الحياة الزراعية بل لأن الأرض لم تعد قادرة على سد حاجاتهم الرعوية.

30 ـ **وكان العراقيون منذ القديم مولعين بالفطرة بالخوض في المسائل والمناقشات الدينية. وكانوا في عهد الخلافة على المذهب السني. أما اليوم فأنهم كلهم تقريباً على المذهب الشيعي.** وفي أثناء تجوالي بين الغرب القاطنين في الأراضي الواقعة على الحدود التي تفصل بين المذهبين ظهر لي السر في صعوبة كون بعض أفراد القبيلة على المذهب السني وبعضها الآخر على المذهب الشيعي. وعلى العموم فإن العرب انفقوا كل أوقاتهم في الجدل فيما بينهم في صورة عنيفة ومملة. وصادف مرة أني جلست بينهم حوالي ثلاث ساعات استمع إلى مناقشاتهم اللفظية المملة التي لا حد لها فسمعت الشيخ فجأة يقول: «هنا رجل أجنبي يفهم مناقشاتنا فليكن حكماً بيننا فيقرر أيّنا محق في كلامه» فأجبته وأنا متأثر من سورة الغضب مثلهم «كلا الجانبين مخطئ». وفي الحال ثار في وجهي عدد من الشبان وكانوا يشيرون بأيديهم ويحركون أجسامهم حركات ايمائية على طريقة العرب وطلبوا مني معرفة ديني. فانتصبت حالاً وقلت لهم: «الله ابونا وسيدنا عيسى أخونا» فنهض الشيخ الذي كان جالساً في الخيمة ومشى إلي في أسلوبه المليء . بالأدب والوقار، ووضع يديه على كتفي وكافأ موقفي الغظ هذا بقوله: «سيدي ان دينك لجميل» فانفض الجميع ثم قال لي الشيخ: «لقد قررنا منذ الآن بأن نكون على المذهب السني وبعد هذا سنقرر أن نكون على المذهب الشيعي. أن أفراد القبيلة يزعجونني في مناقشاتهم التي تستمر طول اليوم ولما أعود إلى البيت لأستريح تأخذ زوجتي في مناقشتي أيضاً».

31 ـ وقد لاحظت من أسلوب كلامه أن الدفاع الذي سيرغمه

على تغيير مذهبه هو رغبة زوجته لا سائر أفراد قبيلته. ومع هذا فيظهر من محادثاتهم أن تأثير المرأة في حياتهم الاجتماعية قليل جداً.

32 ـ وفي ذات يوم ذهبت في سفرة للنزهة على ركوب الخيل مع شاب انكليزي لطيف حسن المعشر، على حد التعبير الشرقي، وكان في رفقتنا شيخ إحدى القبائل ذات النفوذ القوي فالتفت الشيخ فجأة إلى رفيقي وقال: «سيدي هل أنت متزوج؟» فرد عليه الشاب قائلاً: «لا» فقال الشيخ: «هل تتزوج ابنتي؟ أنها صغيرة وجميلة وستكون لك نعم الزوجة المخلصة» وكان أبوها عربياً جميل الصورة وقد اندهش رفيقي الشاب لهذا القول، أما أنا فقلت للشيخ: «كيف يمكنه ان يتزوج ابنتك المسلمة وهو مسيحي» فقال لي بسرعة: «لا دين للزوجة غير دين زوجها. أنتم من أهل الكتاب ونحن من أهل الكتاب فلا يوجد هناك مانع من هذا الزواج».

33 ـ وقد كنت اثناء تجوالي بين هؤلاء القوم استصحب معي بغلاً أو جملاً محملاً بالبرتقال وصناديق التمر وراحة الحلقوم والحلويات الأخرى لتوزيعها على الأسر العربية التي كانت تقوم بضيافتي. وكنت أقول للشيخ: ان تقاليد بلاده تحتم عليه بأن يقوم بضيافتي كما إن تقاليد بلادي تقضي علي بأن أقدم لأولاده وعائلته بعض الهدايا. فكان بعض الأطفال يدعون فتملأ حجورهم بتلك الفواكه فيأخذونها ويهرعون إلى الجانب المعد لهم في الخيمة. ولم يكن يفصل الجانب المعد للنساء عن الجانب المعد الرجال إلا حصير قصبي معلق داخل الخيمة. ومن السهل على الإنسان أن يدرك السر في بقاء العرب في حالة صحية جيدة بعيدين عن دنس الرذيلة؛ ففي هذا المحيط لا مجال للخداع والمراوغة. وعندما كنت أتكئ، على الحصير واتبسط مع

الرجال في الحديث عن أحوال العالم خارج عربستان كنت اسمع النساء، وهن يظهرهن استغرابهن وسرورهن لما كن يسمعنه مني[1].

فعسى أن يحتفظ العرب في وسط صحرائهم بطرز حياتهم الطبيعية هذه ويتمسكوا بتقاليد الرجولة والأنوثة بهذا الشكل الذي يعتبر مفخرة للعالم اجمع. ويندر ان تجد بين شعوب الأرض من يستطيع أن يقول، وهذا ما سمعته منهم: «أنه لا يعرف مرضاً في الحياة غير مرض الموت».

(1) التكوين. الإصحاح السابع عشر: 12، 13، 14، 15.

الفصل الثاني

ألواح الخليقة والطوفان

ألواح الخليقة والطوفان

34 ـ لقد ذكرت في الفصل الأول من هذا الكتاب اني عندما كنت في العراق قمت بدراسة دقيقة لنهر الفرات مبتدئاً من عانة وهيت إلى الخليج العربي وذلك لأتوصل إلى معرفة البقعة التي يمكن أن تكون فيما مضى موطناً للجنائن، بحيث يمكن ارواؤها ارواء سيحياً طول الاثني عشر شهراً من السنة، وإني عثرت على مكانين يتوفر فيهما الشرط المذكور: أحدهما منطقة الشلالات الواقعة بين عانة وهيت وقد قررت ان هذه المنطقة كانت محلاً لجنة عدن الساميين أو الاكاديين، كما كانوا يسمون أنفسهم. وثانيهما منطقة الأهوار التي تبدأ قرب خرائب أور الكلدانيين وقد ذهبت إلى أنها كانت، بعد أن اصلحت، محلاً لجنة عدن السومريين. وقد توصلت إلى تعيين مكان هذه الجنة الأخيرة بعد تجوال طويل في تلك المنطقة مسترشداً بالألواح البابلية للخليفة والخرائط التي تبين مستويات الأراضي هناك. بيد أن الأستاذ المحترم سايس يرى ان هذه الجنة كانت في سهل بابل بدليل إن كلمة «عدن» كانت تطلق في عرف سكان بابل على السهل البابلي، وأنها تعني في اللغة البابلية الأصلية السهل. وكيفما كان الأمر فإن الدكتور كنغ الموظف في المتحف البريطاني يقول: «توجد في المتحف البريطاني قطعة حجرية ترجع إلى العهد البابلي. وهذه القطعة تحدد مساحة من الأرض كانت واقعة في جنة عدن على قناة عدن نفسها. وهي تنبئنا بأنه كانت هناك بقعة تسمى

عدن. وأن هذه البقعة تقع على قناة عدن التي كانت معروفة للناس منذ سنين. ويوجد على هذه القطعة الحجرية كتابة تشير إلى ان تلك البقعة كانت محددة من إحدى جهاتها بالقسم الساحلي من البحر. ومعنى هذا أنها كانت تقع على رأس الخليج العربي» غير أني اعتقد إن المقصود بكلمة «القسم الساحلي من البحر» هو «حدود منطقة الاهوار» ويجد القارئ توضيحاً لذلك في الفقرات . من 36 إلى 43.

35 ـ والألواح البابلية التي بأيدينا اليوم تختص بعصر متأخر نسبياً. وقد دونت فيها، باللغة البابلية أو الأكادية؛ الأشعار والقصص السومرية الأصل. وتدل هذه الألواح على ان نهاية الفوضى كانت على يد مردوخ آلة البابليين، لا على بديهوا (ايا) آله السومريين.

36 ـ ولم يكن ماء النهر يصلح وحده، حسب فهم هؤلاء الاقدمين للطبيعة، لأن يكون مصدراً للحياة ما لم تختلط مياهه بمياه الاهوار العذبة. ومن اختلاط هذين المائين بدأت الحياة على الأرض بتأثير عمليتي الجزر والمد. ولم تصل المياه المالحة قط إلى الاهوار نظراً إلى وجود دلتا نهري كارون وكرخا التي تفصل منطقة الأهوار عن منطقة البحر. وقد كان ـ ولا يزال ـ أثر ارتفاع المياه في الخليج العربي في حالة المد، ذلك الارتفاع الذي يبلغ عشرة أقدام والذي يمتد إلى مسافة نحو مائة ميل، مقصوراً على أحواض الأنهر فقط. فيرتفع منسوب المياه العذبة فيها دون أن يكون ثمة مجال لدخول مياه البحر المالحة إلى الأهوار. فالذي قصده الكتاب الاصليون لهذه القصص من كلمة «عمق» هو «عمق المياه العذبة».

37 ـ ولما كان التوصل إلى حل قضية المياه المالحة أو المياه العذبة أمراً ضرورياً لفهم كثير من الحوادث التاريخية الواردة في

العهد القديم، رأيت أن ارسم للقارئ صورة لوضع مجاري دجلة والفرات وكارون وكرخا وذلك لأن هذا التصوير سيجلي الموقف جلاء تاماً.

38 ـ يدخل دجلة دلتاه في بلد الواقعة جنوب سامراء حيث توجد هناك آثار لمشروع عظيم من أهم مشاريع الري القديمة. وفي الأيام القديمة ظهر رجل جبار، وتدعوه التقاليد المحلية نمرود، فسد قناة دجلة بانشاء سد ترابي في عرض مجرى النهر وحوّل مياهه إلى منطقة من الأراضي الصلبة فارتفع منسوب هذه المياه وصارت صالحة لارواء كل أراضي البلاد. وقد ظهرت في وسط المجرى الجديد شلالات أدت إلى انحصار الملاحة في النهر في القسم الذي يبدأ بمدينة اوبيس ويمر ببغداد فكوت الإمارة حيث كان النهر يجري في حوضه الحالي على طول هذه المسافة، ثم يسير في اتجاه شط الحي أو فرع الغراف الحالي فيمر بمدينة لاكاش وهي تلو الحالية حتى يصل إلى أور الكلدانيين. أما المنطقة الواقعة على مجرى دجلة الحالي التي تمتد في اتجاه العمارة والقرنة فقد كانت بحيرة واسعة من المياه العذبة تعرف باسم «بحيرة سوزيانا» وتدل مستويات الأراضي في هذه المنطقة على ذلك دلالة واضحة لا تقبل الشك. كما أن الفرق بين مستوى قعر النهر شمالي مدينة الكوت وجنوبها يؤيد هذا أيضاً.

39 ـ وكان يلتقي دجلة والفرات في أور الكلدانيين فتجري مياههما الموحدة من هناك مارة بمدينة الزبير الحالية ثم تتصل بخور عبد الله في جدول مدخل بوبيان. والخط المرسوم على خرائط البحرية البريطانية الذي يشير إلى عمق 18 قدماً يبين بجلاء المصب القديم للنهر شمالي مدينة الكويت. ولخور عبد الله هذا صدران أحدهما ملتقى مياه الفرات ودجلة في مجراهما القديم. وثانيهما مصب نهر كارون القديم.

40 ـ ولم يكن الدور الذي قام به نهر كارون في تكوين دلتا الرافدين قليل الأهمية. فبينما كان نهرا دجلة والفرات يحملان كميات كبيرة من الطمى ويتركانها في الأهوار البابلية والكلدانية وفي منخفضات «سوزيانا»، كان نهر كارون ينحدر من مرتفعات ايران فيصب مياهه الغرينية في الخليج العربي أو في ملتقى نهري دجلة والفرات، وبهذه الكيفية كان عاملاً أساسياً في تكوين الأراضي المرتفعة نسبياً التي تمتد من البصرة في اتجاه الشرق. فهذا اللسان الأرضي داخل البحر هو الذي يحمى أهوار الرافدين من هجمات ماء البحر فتبقى محتفظة بعذوتها دون أن تختلط بالاملاح. أما النتوء الأرضي البارز في منطقة البصرة فقد تكون في الغالب بسبب الطمى الذي تحمله مياه نهر كارون، وذلك لأن الطمى الذي تحمله مياه الفرات ودجلة يتجمع في الجهة الغربية في مكان بعيد جداً عن النتوء. وقد كان لنهري كارون وكرخا في الأزمنة القديمة منفذ واحد مشترك ولكن قبل خمسمائة أو ستمائة سنة أخذ نهر كرخا يشق له منفذاً مستقلاً في أعالي دلتا نهر كارون وصار يصب مياهه في أهوار الفرات ودجلة.

41 ـ ويرى الأستاذ المحترم سايس أنه وأن تعذر اليوم دخول مياه البحر في منطقة الأهوار إلا أن الحالة في الأزمنة القديمة كانت على خلاف هذا، وذلك لثلاثة أسباب: أولها ما يظهر من أن الكتاب البابليين كانوا يستعملون كلمة واحدة للدلالة على البحر وعلى الأهوار. وثانيها إن مدينة أريدو كانت ميناء بحرياً للمملكة وكانت مشيدة على حافة البحر. وثالثها ما يعتقد من أن أول إنسان ظهر على الأرض كان يسكن مدينة أريدو وأنه كان يصيد السمك في البحر وأنه كان يقوم في كل يوم بتقديم سمكة كبيرة قرباناً لآلهته. والجواب عن

ذلك أن اولئك القدماء كانوا كأحفادهم عرب اليوم يطلقون كلمة بحر على النهر المستديم والبحيرة العذبة والبحر المالح، كما كانوا يطلقون كلمة صحراء على السهل والجبل بالنظر إلى أن كلاً منهما لا تصل إليه المياه في أوقات الفيضان. وعلى هذا الأساس يمكن معرفة معنى عبور بني إسرائيل البحر الأحمر أيضاً.

إن الظواهر الجغرافية لهذه البلاد كما كانت دائماً وكما هي اليوم، تدل على أن مياه البحر لا يمكن أن تدخل وتختلط بمياه الأهوار في أي زمن من الازمان، لأن دلتا نهر كارون المرتفعة تفصل بين البحر ودلتا نهري دجلة والفرات المنخفضة فلا بد لمياه نهري دجلة والفرات أن تشق لها طريقاً في دلتا نهر كارون لكي تصل إلى الخليج العربي.

42 ـ وبهذا يظهر أن دخول ماء البحر في منطقة الأهوار كان أمراً بعيد الوقوع في تلك الازمنة السحيقة. ويمكنني ان اؤكد أننا كلما ابتعدنا عن منطقة الأهوار وصعدنا إلى الشمال كان نفوذ ماء البحر واختلاطه بالأهوار أقل احتمالاً، وذلك لأنه كلما قلت المياه التي تؤخذ من دجلة والفرات وكرخا وكارون لغرض الري، شق على مياه البحر الصعود شمالاً. ثم إن ماء البحر لم يكن يصل منطقة الأهوار حتى في أعظم أيام رخاء البابليين عندما كانت كل مياه دجلة والفرات تقريباً تستهلك لغرض الري وذلك لأن مجرى دجلة والفرات الموحد لم يكن خالياً من المياه إذ ذاك وإنما كان يتمون من نهري كارون وكرخا اللذين كانت مياههما لم تستغل بعد في الارواء، كما إن خزانات الرافدين كانت تمد المجرى بالمياه أيضاً. ولما بدء بالاستفادة من مياه نهري كارون وكرخا في الارواء فيما بعد، انحطت مشاريع الري التي كانت على نهري دجلة والفرات. نعم يمكن في المستقبل أن يدخل ماء البحر ويختلط بمياه الأهوار وذلك فيما لو

استغلت كل مياه الأنهر الأربعة في سبيل مشاريع الري. وفي هذه الحالة اقترحت إنشاء خزانات في الشمال والجنوب على نهر الفرات، كما اقترحت إنشاء سد على الفرات نفسه قرب البصرة مع قنوات خاصة تأخذ المياه من أمام السد لارواء بساتين النخيل في منطقة البصرة. لكن في تلك الازمنة القديمة التي تتصل بعصر الخليفة لم تكن مياه الأهوار عذبة فحسب، كما هي اليوم، بل كانت مساحتها تبلغ ثلاثة ملايين ونصف مليون ايكر بدلاً من مليونين وثلاثة أرباع المليون ايكر كما هي الآن.

43 ـ أما أن مدينة أريدو كانت ميناء بحرياً لهذه المملكة فليس فيه ما يدل على المدعى، بدليل أن البصرة اليوم ميناء مع أنها تبعد عن البحر ستين ميلا وتصل إليها السفن البحرية التي تحتاج إلى عمق يتراوح بين 16 و18 قدماً من الماء، في حين إن المياه التي امامها عذبة ومستعملة لارواء ملايين النخيل هناك. وأما ما قيل من أن أول من سكن مدينة أريدو الواقعة على ملتقى الأنهر كان يصيد سمكة كبيرة في كل يوم فأنه يدل دلالة قاطعة على ما ذهبنا إليه وهي أن تلك المدينة كانت واقعة على المياه العذبة وذلك لأننا نشاهد اليوم في دلتا دجلة والفرات، في ملتقى النهرين مركزاً لصيد الأسماك الكبيرة، كما أنه يوجد اليوم في ملتقى دجلة بديالى سمك كبير (بز) يصاد في كل يوم ويجلب إلى بغداد للبيع. ولقد رأيت بغلاً محملاً بسمكة كبيرة واحدة من هذه الأسماك.

44 ـ **وتقع اطلال أقدم مدن العراق قرب ملتقى الفرات بمجرى دجلة القديم في أور الكلدانيين.** والسبب في ذلك إن المياه لم تكن تصل هذا الملتقى إلا بعد أن تفقد المواد الغرينية في المسافات

الشاسعة التي انتشرت فيها مع احتفاظها بالمواد الكيمياوية التي هي ضرورية للزراعة. ومن الواضح ان استعمال المياه ذات الطمى الكثير يتطلب كثيراً من الأيدي العاملة لتقوم بكري وتطهير القنوات وهو أمر لم يكن متوفراً لدى أقدم سكان العراق. لهذا رأينا الجماعات القليلة العدد في الأصل تتجه إلى الأماكن السفلى من النهر فتبدأ بالزراعة وتستمر في احياء الأراضي مدة حتى إذا كثر عدد أفرادها بحيث يستطيعون القيام بأعمال الحفر والتطهير اللازمة، عندئذ ينزحون إلى الاقسام العالية من النهر ويستخدمون المياه الغرينية في زراعة الأراضي وأعمارها.

45 ـ وسنرى فيما بعد **كيف نشأ أقدم موطن للجنس البشري في الأراضي المستصلحة من منطقة الأهوار الواسعة ذات المياه العذبة البالغة مساحتها حوالي ثلاثة ملايين ايكر والواقعة بين دلتا نهري دجلة والفرات وبين دلتا نهري كارون وكرخا.** وقد سار الفرات ودجلة في هذا الامتداد الواسع من الماء وكان جريهما على غاية من الهدوء وعندما وصلا إلى البقعة المرتفعة التي كونتها ترسبات نهري كارون وكرخا والتي كانت تفصل منطقة الأهوار عن منطقة البحر، شقاً لهما قناة ضيقة وهكذا وجدا طريقهما إلى البحر. ويجدر بنا بعد أن اتينا على هذا الوصف للبلاد أن نبحث في بعض منتخبات من قصة الخليقة وبعض قصائد أخرى قديمة نقلها إلى الانكليزية الدكتور إل. دبليو. كنغ في كتابه «الألواح السبعة للخليقة».

1 ـ «حينما في العلى لم تكن سماء،
2 ـ والأرض في الدنى لم تكن شيئاً مذكوراً،
3 ـ والأب ابسو الذي خلقهما،

4 ـ إله الفوضى (تيامة) أم لكليهما،
5 ـ وكان ماؤهما ممتزجين معاً،
6 ـ ولم تكن يابسة ولا أهوار ترى،
7 ـ حينما لم يكن أحد من الآلهة قد ولد بعد».

* * *

8 ـ «أنت أيها النهر الذي خلقت كل الأشياء،
9 ـ حينما حفرتك الآلهة العظام،
10 ـ البسوا ضفتيك حلة الرخاء،
11 ـ في طيات غمرك بنى أيا «ملك الغمر» مسكنه».

* * *

12 ـ «لم يكن قد بنى بعد البيت المقدس، بيت الآلهة في الموضع المقدس،
13 ـ لم يكن قد نبت قصب، ولا خلقت شجرة،
14 ـ لم يكن الغمر قد خلق، ولم تكن أريدو قد بنيت،
15 ـ كانت جميع الأرضين بحراً،
16 ـ آنذاك كانت حركة في البحر،
17 ـ ثم بنيت أريدو، وشيدت ايساكل،
18 ـ واتخذ الإله «لوكال ـ دول ـ ازاكا» ايساكل الواقعة في وسط الغمر، مسكناً،
19 ـ ووضع مردوخ قصباً على وجه الماء،
20 ـ وضع التراب ونثره على القصب،
21 ـ لكيما يجعل الآلهة تسكن في المقر الذي تهواه أفئدتهم».

46 ـ لقد ترجمت كلمة «ابسو» الواردة في البيت الثالث بكلمة

«غمر» في البيت الحادي عشر والرابع عشر والثامن عشر وأعني به المساحات الواسعة من الأراضي المغمورة بالمياه العذبة التي ذكرناها الآن والتي يصل إليها تأثير مد الخليج العربي البالغ ارتفاعه عشرة أقدام. أما «الغمر» الذي أشار إليه السومريون في ألواحهم فإنما هو غمر المياه العذبة. وأما «تيامة» (ويتلفظه عرب الأهوار تهومات» فهو أم كل شيء (البيت الرابع) وقد عبر عنه في البيت الثامن بكلمة نهر الذي هو أصل كل أنواع الحياة. ويقول لنا البيت الرابع والتاسع والعاشر إن النهر الذي كان يشار به في أول الأمر إلى الفوضى صار مصدراً لكل أنواع الرخاء عندما سيطرت عليه الآلهة وجعلته يجري في قناة واحدة. أما الأبيات؛ الحادي عشر والسادس عشر والسابع عشر فتنبئنا بأن أول مدينة وأول معبد بنيا في وسط الأهوار الواسعة العذبة، عندما فاض النهر وغطى مساحات واسعة كالبحر وعبر الأهوار الواسعة، وأن نشوء الحياة كان مصحوباً بنمو القصب في تلك الأهوار وبظهور المستنقعات (البيت السادس والثالث عشر) ويصف لنا البيت التاسع عشر والعشرون والحادي والعشرون عملية إحياء الأراضي التي بديء بها في تلك المنخفضات وذلك باستخدام القصب والتراب لإنشاء ضفاف حول مساحات معينة من الأراضي المغطاة بالمياه ثم زرعها، بعد جفافها، بطريقة الارواء السيحي. ففي داخل هذه الأراضي المسيجة أُقيمت معابد الآلهة أو المساكن التي تهواها أفئدتهم.

47 ـ وبعد مضي بضعة آلاف من السنين غير الفرات مجراه في هذه الأهوار الواسعة مرة أخرى فقد ترك مجراه القديم وأخذ يجري في السهول ويغمر مساحة طولها سبعون ميلاً وعرضها أثنا عشر ميلاً، وفي عمق قدمين أو ثلاثة أقدام. وقد شاهدت العرب وهم يستخدمون

القصب والتراب في إقامة السدود أيام الصيهود فيسيجون بها قطعاً من أرض الأهوار لإعدادها لسكناهم وزراعتهم وجعلها في مأمن من خطر فيضان الفرات.

48 ـ **وقد حاولت ان اتلفظ باسماء الآلهة البابلية القديمة ومعابدها كما يتلفظ بها عرب الأهوار. ولا شك إن حرف (إي) الذي تبدأ به اسماء المعابد هو حرب (يا) نفسه الذي يستعمله العرب إداة للنداء عندما يضاف إلى أحد اسماء الجلالة البالغ عددها تسعة وتسعين اسماً فيقال: يا ستار يا كريم. . . الخ ثم إن الإله (ايا) الذي يعبر عنه بكلمة (يهوا) يرادف كلمة (جيهوفه) بالانكليزية كما إن كلمة «تيامه» التي حرفت فصارت «تيهومات» تشبه كثيراً كلمة «تيهوم» العبرية التي تدل على الغمر.** وإذا أرادت إحدى القبائل العربية الساكنة في منطقة الأهوار أن تهاجم قبيلة أخرى فإن أفراد القبيلة المهاجمة يتكتلون على صورة حلقات يبلغ أفراد كل منها من 25 إلى 40 رجلاً فيدورون وبأيديهم البنادق وهم يضربون الأرض بأرجلهم وينادون كما يخيل إلى «تيهام، تيهام» مع تأكيد شديد على الحرف الأول. وفي مثل هذه الحالات لا يرتدي المتحاربون لباساً غير المئزر الذي يستر الحقوين. ولقد شاهدت مرة زوجة أحد زعماء القبائل وكانت ترتدي ثوباً شفافاً وهي تقفز من جماعة إلى أخرى تضرب بلطف على ظهور الرجال وتحرضهم على النزال وقد كانت في حالة تهيج وثوران شديدين بحيث نسبت أن أخا زوجها أحد باشوات الأتراك. والتعابير المصرية مثل «الكلب الكبير» و «مردوك» و «أبسو» يتلفظ بها العراقيون هكذا على التوالي: «الجلب الجبير» و «مردوج» و «اباسو».

49 ـ وقد اتخذ السومريون أقدم موطن لهم داخل السهل الذي تصل إليه المياه طول أيام السنة، فأقاموا هناك من السدود المحكمة

ما يحميهم من خطر الفيضانات التي لا يتجاوز ارتفاع الماء فيها ثلاثة أقدام عن مستوى سطح الأرض. وقد شيدوا مدنهم ومعابدهم في الأماكن التي يأمنون فيها من شر الوحوش الضاربة ومن عدوان عرب الصحراء. وكانوا يتعاطون مهنة الزراعة ويروون أراضيهم بأحداث فتحات في تلك السدود حتى تصل المياه السيحية إلى أراضيهم. وهناك في تلك الأهوار المحيطة بمساكنهم نازلوا «تهومات» الجبار المخيف الذي ورد ذكره في اللوح الأول من ألواح الخليقة. لقد كانت كلاب البحر التي تأتي من الخليج العربي فتصعد في نهر دجلة وتسير حتى تصل إلى سامراء الواقعة شمال بغداد، مصدر رعب للذين يعومون في هذا النهر في ذلك الوقت كما هو الآن. أما الحيوانات التي نعتها المترجمون بأنها كلاب صيد متهيجة وأكباش فأغلب الظن أنها أسود وخنازير وحشية، وقد كانت الأسود مألوفة في القسم الجنوبي من بابل قبل أن يتعاطى العرب الأسلحة النارية. وأما الخنازير فلا تزال موجودة في هذه المناطق بكثرة حتى يومنا هذا. والأسطورة القائلة ان جنة عدن السومريين ومدينة أريدو ومعبدها، ياساكل كانت في القرنة في نقطة ملتقى دجلة بالفرات سابقاً، وهي موقع ملتقى النهرين قبل أن يتحول إلى الملتقى الحالي في گرمة علي، لا تخلو من أساس منطقي. هذا ويخيل إلي أنه سوف يعثر عليها في شمال أور في المتلقى القديم للنهرين.

50 ـ «في أريدو نما عنب أسود غرس في مكان جميل محاط بالأنهر حيث يلتقي النهران».

وترى اليوم في القسم الجنوبي من الفرات بقعة واسعة مغطاة بنبات البرسيم تؤلف اخصب جزء من الأراضي المزروعة في هذا

القسم. وفي هذه البقعة شبكة متصلة من أشجار النخل التي تقي المزارع بظلها الكثيف من برد الشتاء القارس ومن حر الصيف المحرق. ويتخلل أشجار النخل هذه أغصان الكروم التي تتدلى منها عناقيد العنب الارجواني. فهنا كان موطن العنب الأسود لمدينة أريدو الذي غرس في مكان جميل. **وهنا كانت جنة السومريين. وفي هذا المكان نفسه انشأ العرب الفاتحون في القرن السابع إحدى جنائنهم الأرضية الأربع أما الثلاثة الأخرى فهي دمشق وشيراز وسمرقند.** لقد كانت أشجار الحياة تحمي الجنة هناك كما كان ثمر العنب شراب الآلهة الذي حرم أكله، غير أن حواء ذلك المخلوق الغريب شاءت ان تنهمك في أكل هذا الثمر فكانت عاقبة امرها خسران ذلك النعيم.

51 ـ لكن بعد مرور السنين أخذت ضفتا نهر الكوشيين أو نهر كوثي القديم المتفرع من نهر الفرات الذي بنيت عليه مدينة أريدو، تعلو في صورة مستمرة بسبب كميات الطمى التي كانت تحملها المياه. وقد صادف في أحد الفيضانات العالية جداً ان شق النهر له مجرى جديداً في الأقسام العالية منه وأنحدر إلى إحدى السهول الواسعة المنخفضة الواقعة في الدلتا وأصبح نهر كوثي ونهر النيل عاليين وجافين وصار من المتعذر ارجاع المياه إليهما بدون اجراء أعمال تطهيرية. وكان على نفر والوركاء ولارسا ان تروى من فرع آخر يستمد مياهه من مجرى الفرات البابلي الجديد. كما ان مدينتا شورباك وأريدو اصبحتا مغمورتين بالمياه بالنظر إلى انخفاض أراضيهما. وهكذا حول الفرات مجراه مرة أخرى وأخذ ينساب في أهوار واسعة كالتي كان فيها من قبل ووضعت أسس لمدينة جديدة ولمعبد جديد وراء الضفاف المحكمة السدود الواقعة في منطقة الأهوار المحصنة. وقد نقل إلى معبد مردوخ الواقع في بابل، مركز

منطقة الرخاء الجديدة، اسم: «ايا ساكل» المعبد المقدس في مهد الشعب السومري ثم امتلك الاكاديون أراضي سومر.

52 ـ ويرى المتجول اليوم في الأراضي الواقعة على ضفاف نهر الهندية المتفرع من الفرات أو «بالاكوباس» الذي أخذ ينساب في مجرى فرع بابل القديم، العرب في كل مكان يقومون باحتفالات شعبية لتخليد ذكرى واقعة الجمل وواقعة الطف. وعندما يجف نهر بابل جفافاً تاماً فإن جميع المعابد المشيدة الآن على ضفافه ستنتقل إلى ضفاف فرع الهندية، كما جرى لمعبد «اياساكل» حيث تحول من مدينة أريدو إلى مدينة بابل، وكان على مدينة أريدو أن تقنع في أيام بؤسسها بمعبد «أيا أبسو» أو الغمر. وهكذا لقيت حتفها.

53 ـ وقد رسمت تقلبات مجاري النهر وتأثيراتها صوراً مختلفة في نفوس أولئك الأقدمين، فكان السومريون يرون النهر في أول الأمر عنصراً يخرب ويدمر كل شيء فتصوره في صورة «تهومات» ثم لما تم التغلب على مياهه تدريجياً واستغلت هذه المياه في ارواء الأراضي فدبت الحياة على وجه الأرض وبرزت تلك الجنائن الغناء والغابات والأحراش، رجع السومريون بذاكرتهم إلى الماضي وتصوروا آله الفوضى ذا السلطة المطلقة الذي يعتبر بدء واصل الأشياء كما اعتبروا الدمار الذي يرافق الفيضانات والخراب والفقر اللذين يعقبانها مظهراً لهذا الإله. ثم تخيلوا بين هذين الإلهين آلهة أخرى مخيفة ولكنها كانت أقل هولاً منهما. ومن اتحاد تهومات بالإله ابسو ولد «لخمو» و «لخامو» وبمرور الأجيال ظهر «انسار» و «كيسار» واستمرت الأيام فظهرت آلهة شريرة ثم بعد مرور وقت طويل ظهرت آلهة الخير. وكانت كل طبقة متأخرة من هذه الآلهة أحسن من سابقتها حتى ظهر الإله «يهوا» الذي حل محل الإله «مردوخ» إله البابليين الأكبر.

54 ـ ذهب داروين إلى أن في جسم الإنسان من الدلائل ما يبرهن على ضعة الأصل الذي انحدر منه، ولكن هؤلاء القدماء كانوا جريئين جداً فقد ذهبوا إلى أن كل شيء سواء في السماء أو في الأرض، فإنه يحمل شاهداً على ضعة أصله.

55 ـ وقد تضرع «ابسو» آله البحيرة العذبة المحدودة الخاضعة للمد والجزر، إلى «تهومات» الإله المطلق الذي يمثل الفيضان الدائم وطلب منه ان يساعده على تحطيم الأعمال العمرانية التي انشأها «مردوخ» الإله الذي كان منهمكاً في تنظيم العوالم. وكان ان أجاب «تهومات» ما أراده «ابسو» فخسر العالم الهدوء والراحة، وكان إله الفوضى في جملة من حرم الهدوء. بهذا تبدأ قصة الخليقة التي تبين كيف سيطر الإله «يهوا» والآلهة القدماء على «ابسو» وعلى الأهوار، وكيف تمكن «مردوخ» آخر إله ولد، من التغلب على «تهومات» وذلك بانشاء شبكة من القنوات والسدود فمزق جسمها وصيره قطعتين ممتدتين من القطب إلى القطب وسيطر على الأمطار السماوية والفيضانات الأرضية. ويعرف «مردوخ» هذا لدى العرب باسم «نمرود» وقد كان نموذجاً للبطولة في العالم العربي. وكان يعتبر لدى السومريين مخترع النبال والحبر الاعظم للإلهة. ويعتقد اولئك القدماء ان النهار اروع من الليل وأن الأول ولد من الثاني ولهذا كان المساء والصباح أول يوم. وقد توصلوا إلى الأسباب التي جعلت الإنسان أدنى مرتبة من آلهة الخير مع انه ظهر إلى الوجود في فترة متأخرة عنها. وقد رسموا في قصائدهم الشعرية صوراً حية للفيضانات التي دمرت الجيل البشري الذي كان يسكن مدينة «شورباك» الواقعة على الفرات وقد واجهوا فيضانات نهريهم المتدفقة بالشجاعة نفسها التي واجهوا بها كل مشكلة من مشكلات الحياة التي اصطدمت بهم.

56 ـ ومن المحقق أن إبراهيم الذي كان يسكن في أور الكلدانيين كان يعرف الأساطير السومرية المتعلقة بالخليقة والطوفان. كما أن موسى الذي مكث بين الميديانيين مدة أربعين سنة لا بد وأن يكون قد رحل إلى أور نفسها مراراً عديدة وسمع أخبار السومريين وقرأ أساطيرهم في مكتباتهم وذلك لأن خيام الميديانيين كانت تمتد من خليج العقبة إلى جنوب دلتا الفرات.

57 ـ وهناك عدة تراجم للقصص البابلية المتعلقة بالطوفان غير إني لاحظت وأنا في العراق ان ترجمة الدكتور بينج أكثر التراجم ملاءمة لأحوال البلاد وها أنا اقتبس منها عدة قطع:

اقترب الوقت المحتوم.
في المساء ارسلت الآلهة مطراً غزيراً.
خشيت فجر ذلك النهار،
وخفت ان أرى ذلك اليوم.
دخلت الفلك واوصدت الباب.
هبت العاصفة شديدة عالية،
غطى الماء الصحاري،
لم ير المرء صاحبه.
صرخت عشتار صراخ امرأة في المخاض،
انتحبت ملكة الآلهة وناحت بصوت عال:
«استحالت بذرة البشر إلى طين».
عصفت الزوبعة أياماً ثم هدأت في اليوم السابع،
ظهر أمامي قصب الأهوار كقضبان السياج،
لاحظت المنطقة على ساحل البحر،

طغى الماء على الأرض وارتفع اثنتي عشرة عقدة.
اتجهت السفينة إلى صحراء نصير،
لم تسمح صحراء نصير لها بالمرور.

58 ـ لقد ابدلت كلمة «تل» أو «جبل» اللتين لا معنى لهما في النص البابلي بكلمة صحراء وذلك لعدم ملاءمة هاتين الكلمتين للمقام. وقد اسهبت في الفصل الأول في ذكر الأسباب الداعية لذلك. وعدا هذا فإني استبدلت كلمة أيا بكلمة يهوا لأنه لم يسبق ان إنساناً ما عبد أيا.

59 ـ ولأجل المقارنة أدرج تفصيلاً لنص ترجمة الدكتور ر. و. روجرز (أحد أساتذة قسم الدراسات اللآهوتية (التابع لدرو) المليئة بالحيوية والقوة:

60 ـ «اقترب الوقت الموعود،
ارسلت الآلهة مطراً غزيراً في المساء.
خفت فجر ذلك النهار،
خشيت أن أرى ذلك اليوم.
دخلت الفلك واوصدت الباب».

* * *

عصفت الزوبعة عالية وتسلق الماء على الصحاري[1]
جلبوها على البشر كأداة للخراب،
لم ير المرء صاحبه،
انكرت السماء البشر.

---

(1) انظر ـ 58 ـ.

خشيت الآلهة الطوفان،
تراجعت وتسلقت سماء آنو.
ربضت الآلهة كالكلب، وانحنت بجانب الجدار.
بكت عشتار بكاء امرأة في المخاض،
بكت ملكة الآلهة بصوت عال:
«استحالت بذرة العناية الخالقة إلى طين».

* * *

61 ـ «هبت الريح وعم الطوفان والعاصفة الأرض.
ولما دنا اليوم السابع، هدأت العاصفة، اما الطوفان
الذي حارب كجيش، فقد انتهى.
عندئذ هدأ البحر، ورقدت العاصفة، وتوقف الطوفان.
نظرت إلى البحر، بينما ارسلت صوتي بالعويل.
استحال جميع البشر إلى طين.
عرضت اليابسة أمامي كمستنقع.
فتحت النافذة فوقع النور على وجهي،
سجدت، وجلست، وبكيت،
وجرت دموعي على وجهي.
نظرت إلى العالم، فكان كله بحراً.
بعد اثني عشر يوماً ظهرت الأرض.
اتجهت السفينة إلى صحراء نصير[1]،
صحراء نصير امسكتها بمتانة فلم تتحرك».

* * *

(1) راجع ـ 58 ـ.

62 ـ «لما دنا اليوم السابع،
أرسلت حمامة وتركتها تذهب،
طارت الحمامة هنا وهناك،
لكن لم يكن هناك مكان تستريح فيه فرجعت.
ارسلت عصفوراً وتركته يذهب،
طار العصفور هنا وهناك،
لكن لم يكن هناك مكان للراحة فرجع.
ارسلت غراباً وتركته يذهب،
طار الغراب بعيداً، فرأى هبوط المياه،
اقترب من الأرض، وخاض الماء، ونعق ولم يرجع.

63 ـ ثم اطلقت ثم اطلقت كل شيء، إلى الجهات الأربع للسماء، وقدمت قرباناً،
سكبت دماً على الاكمة الصحراوية.
قدمت اطباق القرابين سبعاً سبعاً،
جمعت تحتها أكوام القصب وخشب الارز والآس.
تنسمت الآلهة الرائحة،
تنسمت الآلهة الرائحة الزكية،
تجمعت الآلهة كالذباب حول الذي قدم القرابين.
وأخيراً لما دنت سيدة الآلهة،
رفعت الجواهر الغالية التي صنعها آنو وفقاً لرغبتها.
سوف لا أنسى هذه الأيام التي طوقت فيها عنقي بالمجوهرات.
سأفكر في هذه الأيام، سوف لا أنساها أبداً.
لتأت الآلهة إلى القرابين،

لكن لا يأت بيل إلى القرابين،
لأنه استبد برأيه وأرسل الطرفان.
وسلم شعبي إلى الهلاك.

* * *

64 ـ فتح أيا فمه وتكلم،
تحدث إلى المحارب بيل،
انت المتكلم بين الآلهة، المحارب بيل،
ارسلت طوفاناً لأنك لم تمحض النصيحة.
على المجرم جرمه.
على المعتدي عدوانه.
كف، لا تدع الخراب يعم الكل، لا تدع البريء يكون...

65 ـ **لا خلاف في أن طوفان نوح هو الطوفان نفسه الذي ورد ذكره في القصص السومرية فكلا الطوفانين يشيران إلى حادث تاريخي واحد والبقعة التي حدثا فيها واحدة، وهي الأراضي المنخفضة التي تؤلف دلتا الفرات ودجلة الواقعة شمال أور الكلدانيين.** أما بالنسبة إلى موقع جنة عدن الساميين الوارد ذكرها في العهد القديم وموقع جنة عدن السومريين التي ورد ذكرها في قصة الخليقة فهناك مجال واسع لاختلاف الآراء. أما أنا فلا يخامرني أي شك في أن موقع جنة عدن السومريين إنما هو المكان الذي افترضه الأستاذ المحترم سايس قبل مدة طويلة أي في الملتقى القديم لدجلة والفرات في منطقة الأهوار شمال أور الكلدانيين. ألم يقل لنا قبل فترة وجيزة الدكتور كينغ الموظف في المتحف البريطاني بأنه عثر على قطعة حجرية تحدد

مساحة من الأرض كانت تقع في جنة عدن على قناة عدن نفسها، وأن منطقة الأهوار كانت تحد جهة واحدة من جهات هذه الأرض؟

66 ـ أما تعيين موقع جنة عدن الوارد ذكرها في العهد القديم فهو أكثر صعوبة. فالأستاذ سايس يرى أنها كانت في ملتقى دجلة بالفرات أيضاً حيث كان نهرا كرخا وكارون يصبان في المجرى الذي يتكون من مياه الرافدين جنوب الملتقى. ولكننا إذا عرفنا أن الشعوب السامية كانت قد استوطنت في الشمال الغربي من نهر الفرات، وأنها هاجرت منه إلى جنوبه، وأن العهد القديم قد نص في صراحة على أن النهر بعد أن يخترق الجنة ينقسم إلى أربعة فروع، عندئذ يتحتم علينا أن نلتمس مكاناً آخر للجنة يقع في شمال هذه الفروع الأربعة: فيشون وجيحون وحداقل والفرات، بين عانة وهيت كما ذكرت ذلك في الفصل الأول. فلا بد أن يكون مهد الساميين في أعالي الفرات، وذلك لأنهم خرجوا من الجنة في الاتجاه الشرقي حيث وقفت ملائكة السرافيم في طريقهم لمنعهم من الرجوع إليها. هذا وليس في الجهة الشرقية لجنة عدن السومريين سوى منطقة البحيرات والأهوار التي تبلغ مساحتها ثلاثة ملايين ايكر.

67 ـ ومن المحقق أنه سيأتي اليوم الذي تعود فيه هذه الجنة إلى الوجود مرة أخرى. ومع إني إذا قورنت بمردوخ اعظم مهندسي الآلهة البابلية فاني لست أكثر من مهندس صغير، إلا إني مع ذلك مهندس، لهذا فإني واثق جداً بأن تحقيق المشاريع التي اقترحتها في تقريري المرفوع إلى الحكومة التركية سيضمن الاساس القوي لانعاش هذه البلاد ورخائها في المستقبل، تلك البلاد التي كانت لها صيت في الزمن القديم. والذي أراه بوجه عام هو أن يؤخذ بنظام الري الدائم

مع انشاء نواظم على النهرين. وهذا امر يختلف كل الاختلاف عن نظام الري القديم الذي ساد في الأقسام العليا من دلتا العراق، حيث استخدمت عشرات الألوف من الأسرى البائسين الذين كانوا يقضون العمر في تطهير الجداول من ترسبات فيضانات العراق والأعمال التي لا نهاية لها، تلك الأعمال التي كان يئن من جرائها أولئك الاسرى فيجلسون على حافة الأنهار ويذرفون دموعهم هناك. وهذا النوع من الري الذي تقترحه كفيل بأن يعيد إلى العراق أسعد الأيام التي مرت على السومريين القدماء، سكان منطقة الأهوار، حيث كانت الترسبات معدومة نسبياً، وحيث انشأوا لهم جنائن عدن، تلك الجنائن التي بقيت ذكرياتها عالقة بالاذهان قروناً طويلة. وسنرى مرة أخرى مغزى الكلمات المؤثرة التي فاه بها أحد حكماء السومريين القدماء على ضفاف الفرات حيث قال:

«أنت أيها النهر الذي أوجدت كل الأشياء،
حينما حفرتك الآلهة العظام،
أنهم ألبسوا ضفافك حلة الرخاء».

وأود ان اختم هذا الفصل بذكر الحوادث التي وقعت في تاريخ العراق فيما بعد، تلك الحوادث التي تركت انطباعاً قوياً في نفسي خلال السنين الثلاثة التي بقيت فيها في هذا القطر.

68 ـ إن جميع الملوك القدماء الذين قاموا بأعمال عظيمة تستحق الذكر تركوا لهم آثاراً في الجداول والقنوات التي انشأوها. وقد اطلقوا عليها أسماء غريبة تشبه اسم «القناطر الخيرية» وهو الاسم الذي يسمى به المصريون أول سد أنشيء على النيل.

69 ـ ولما زادت كمية المياه المأخوذة من النهر صرنا نسمع

بوجود الخزانات التي تدخر فيها المياه للإرواء المستديم، وخصوصاً لتجهيز قناة اراكتو المهمة التي كانت تنحدر من سيبار فتسقى بابل. وعدا ذلك فقد كانت لديهم منافذ واسعة لتصريف المياه الزائدة في الصحاري لتخفيف وطأة الفيضانات العالية في الفرات. ولم تكن لديهم منافذ لتصريف مياه دجلة وهذا ما جعل البلاد في خطر دائم.

70 ـ وقد استخدم كورش الكبير جيوشه في أحداث قنوات كثيرة متفرعة من جندس أو ديالي الذي يتصل بدجلة قرب بغداد. ولا يزال بعض هذه القنوات مستعملاً حتى اليوم. ومنها نهر خراسان. فأغلب الظن أن الذين قاموا بحفره كانوا من أفراد الجيش الذين جيء بهم من تلك المنطقة التي في ايران.

71 ـ وقد رسم هيرودوتس صورة جذابة ولامعة لحالة العراق في سنة 480 قبل الميلاد. فقد تركت الواردات الهائلة التي كان يجيبها ملوك الفرس من أرض العراق وغلاتها الكثيرة ومدنها العديدة ذات الثروة، انطباعاً خاصاً في نفسه. وفي الحقيقة إني تجولت في مسافة استغرقت عشرة أميال أو اثني عشر ميلاً من هذه الأرض متتبعاً الآثار الواقعة جنوب آثار نهر اراكتو القديم، فوجدت آثار الخزف المحطم المنتشر على طول الطريق الأمر الذي يدل على مدى كثافة السكان الذين كانوا يعيشون في هذه المنطقة.

72 ـ وبعد مضي نحو خمسين سنة وصف زينوفون، تلميذ سقراط، هذه البلاد وصفاً دقيقاً كما رآها هو بعينه. وقد تتبعت الطريق الذي سلكه زينوفون في الدلتا، من «أبواب بابل» حتى مدينة أوبيس، وقد استصحبت معي كتابه، وها أنا أصف للقارئ انطباعاتي الخاصة بهذا الشأن. دخل جيش كورش الصغير الدلتا من «أبواب

بابل» قرب هيت، وعبر وادي الصقلاوية على السد الترابي العظيم الذي كان منذ الازمنة القديمة يمتد بين الصحراوين، والذي كان يحصر مياه الفرات ضمن مجرى وادي النهر نفسه. وقد توقع كورش ان يقوم ارتاكسرس بهدم ذلك السد ليحول بينه وبين أخيه ويصبح حاجزاً طبيعياً يمنعه عنه، سيما بعد أن علم كورش أن أخاه قام بتطهير صدر النهر ليسهل جريان المياه فيه بعد فتحه. ولذا فقد بادر كورش فعبر السد قبل أن يتمكن أخوه من تخريبه ودخل المنطقة الصحراوية الواقعة بين الفلوجة وبغداد والبالغة مساحتها 110 أميال مربعة. ثم بعد ذلك اصطدم بجيوش ارتا كسركس التي تقدمت في ذلك السهل تحت ظل كثيف من الغبار الشبيه بالسحاب الأبيض. وقد شاهد زينوفون أول الجداول الأربعة التي عرفت في عهد الخلفاء باسم عيسى وصرصر وملك وكوثي والتي تستمد مياهها من نهر الفرات في جنوب هذا السهل الصحراوي. وكان الجدول الأول قد شق له طريقاً عميقاً في الصحراء. ولم يشاهد زينوفون غير هذا الجدول. وكل ما ذكره عن الجداول الباقية مبني على الاشاعات والروايات التي سمعها من غيره، وذلك لأن معلوماته فيما يتعلق بالحالات الخاصة غير المألوفة لديه كانت غير مضبوطة، فهو لم يدع أنه رأى باقي الجداول، وهذا ما يدعونا إلى عدم الأخذ بأقواله، فمثلاً غير صحيح ما ذكره من أن تلك الجداول الأربعة كانت كلها على اتساع واحد، وأن المسافات الفاصلة بينها متساوية، وأنها تأخذ مياهها من نهر دجلة فتصب في الفرات، وذلك لأن الفرات في هذه البقعة يعلو على دجلة بمقدار 25 قدماً. ثم إن معركة كوناكسا لا يمكن ان تكون قد حدثت في جنوب المنطقة الصحراوية السهلة لأن هذه البقعة كانت تتخللها أربعة انهر كبيرة ومجار عميقة لا حصر لها،

وعدا ذلك فقد كانت موحلة بسبب وفرة مياه الري هناك، فكان يستحيل على الجيوش الجرارة التي يرافقها عدد كبير من الخيالة وعربات النقل ان تسير في هذه البقعة الوعرة، فضلاً عن ان تقوم بمناورات عسكرية وحروب. وبعد انتهاء المعركة تراجع العشرة آلاف جندي إلى الجهة الشمالية الغربية عند شروق الشمس التي كانت في تلك الساعة ترسل أشعتها عليهم من الجهة اليمنى، ولكن سرعان ما اربكوا عندما وجدوا أنفسهم أمام المياه المتدفقة من نهر الصقلاوية الذي فتحه ارتا كسركس وذلك بهدم السد الواقع في صدره، ذلك السد الذي كانت قد سارعت جيوش كورش إلى العبور عليه قبل فتح النهر، ولم تكن يومئذ سدود أو خنادق في الجهة التي تمتد إلى شمال تل صغيرة، وإنما كان سور المديانيين، على ما أظن، يمتد من تل صغيرة إلى عقرقوف ومن هناك إلى دجلة حتى يصل إلى جنوبي بغداد تماماً. وكان هذا السور يحمي البابليين من غارات الآشوريين كما كان يحميهم من عدوان المديانيين في العهد الذي سبق العصر الفارسي. وكان نهر الصقلاوية يقوم بهذه المهمة منذ أقدم الأزمنة، ولكن بعد أن سد هذا النهر استعيض عنه بالسور المذكور. ومن حسن الصدف ان أرتا كسركس قام بفتح هذا النهر في شهر آب أيام هبوط المياه فلو أنه كان قد احدث ذلك في موسم الفيضان لجلب إلى البلاد كارثة عظيمة.

73 ـ وقد عبر العشرة آلاف جندي الذين كانوا لا يزالون في جنوب سور المديانيين إلى الشمال في مكان يقع شرق عقرقوف فسلكوا طريقاً ملتوية تدور حوالي منخفض عقرقوف حيث اجتازوا قناتين تتفرعان من نهر دجلة أما سد نمرود. وكان نهر الاسحاقي ثاني هاتين القناتين. وتقع على ضفته الشرقية مدينة ستاكي التي لا تبعد عن

مدينة الكاظمية الحالية. وقد عبروا نهر دجلة فوق جسر يستند على سبع وخمسين جسارة عائمة. وهذا العدد يطابق عدد الجسارات التي يتألف منها الجسر الذي كان في بغداد منذ بضع سنين، قبل أن يستعاض عنه بالجسر الحالي الذي له جسارات أكبر. وبعد هذا اضطروا إلى ترك المنطقة المجاورة للنهر لأنها كانت مليئة بالقنوات التي كان قد انشأها كورش الكبير وحوّل مياه ديالي إليها، فتابعوا سيرهم ومعهم عربات النقل سالكين الطريق الحالي الذي يؤدي إلى بعقوبة. وفي اوبيس عبروا «نهر فسكس» أو نهر العظيم، على جسر يبلغ طوله مائة قدم ومن ثم دخلوا الأراضي الصحراوية. أما مدينة أوبيس هذه فيقول فيليكس جونس التابع للبحرية الهندية إنها كانت تقع في مكان «تل منجور» حيث كان نهر العظيم يصب في حوض دجلة القديم قبل أن يتحول إلى مجراه الحالي. وفي شمال هذه المنطقة تنتهي سهول دجلة وتبدأ المنطقة الحجرية التي لا تصلح للزراعة والتي اطلق عليها زينوفون اسم صحراء.

74 ـ وقد رسم المؤرخون الذين كتبوا عن عصر الاسكندر صورة شيقة للطريقة التي كانت تستخدم للري في البلاد، وللصعوبات التي كان يجابهها البابليون في سد القنوات أيام الفيضان، وتطهيرها أيام الصهيود. فقد ذكروا ان عملية سد الجداول بعد الفيضان كانت اصعب العمليات.

75 ـ وقد قام الاسكندر بكل قواه وعبقريته بانجاز مشاريع مهمة تستحق الاعجاب والتقدير، فقد عالج بحكمة مشكلة نهر الهندية أو بالاكوباس. وقد كانت كل مياه الرافدين تصرف في ري الأراضي إلا في موسم الفيضان، غير أن الاسكندر أزال السدود الترابية التي كانت قد اقيمت عبر دجلة وذلك ليتمكن من أن يصعد إلى أعالي النهر باسطوله الذي أتى به من الخليج.

76 ـ ولعل اعظم رخاء شاهدته الدلتا إنما كان في أيام ملوك الفرس الساسانيين في العصور الأولى للمسيحية، فقد كان جدول النهروان العظيم الذي يبلغ في العرض اربعمائة قدم وفي العمق خمسة عشر قدماً يروي، كل المنطقة الواقعة شرق دجلة، كما كان نهر دجيل يروي كل المنطقة الواقعة غربها. وكانت تتفرع من الفرات الجداول الأربعة التي ذكرها زينوفون. وكانت هناك جداول أخرى تستمد مياهها من الفرع البابلي قرب بابل فتروي المنطقة التي تمتد إلى مجرى دجلة القديم أو فرع الحي الحالي. **وذكر اميان مرقلان، الذي تجول في كل منطقة الدلتا في القرن الخامس الميلادي: أن البلاد كانت غابة خضرة من اقصاها إلى اقصاها. ويقول مؤرخو العرب الذين كتبوا تاريخ العراق خلال القرنين السابع والثامن للميلاد: ان صوت الديكة في الصباح كانت تتجاوب على طول الطريق بين بغداد والبصرة.**

77 ـ وكانت مراكز العمران تختلف من عصر إلى آخر، فبينما كانت «تلو» و«سنكار» و «اور الكلدانيين» تحتل قلب المملكة منذ أقدم الأزمنة إذ أخذت «سيبار» و «بابل» هذه المكانة في العصر البابلي ثم «اوبيس» و «طيسفون» في العهد الفارسي.

78 ـ وفي القرن السابع للميلاد قضى العرب على حكومة فارس واستعاضوا بالكوفة وواسط والبصرة عن المدن القديمة. وقد مهدت هذه المدن العربية السبيل لظهور بغداد التي لا تزال حتى يومنا هذا أهم مدينة في العراق. وقد شاهدت بغداد أعظم أيامها في القرن التاسع للميلاد في عصر هارون الرشيد. وفي عهد الحكم العربي أخذ الرخاء في المملكة يتدهور في صورة مستمرة. ولكن الضربة الأخيرة

كانت على أيدي المغول بقيادة جنكيز خان والتتر بقيادة تيمور خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد. لقد كانت كوارث العراق تتجلى في الفيضانات التي غمرت البلاد بالمياه أما الآن فقد اصبحت البلاد مغمورة ببحر من الدماء. وفي خلال عهود الارتباك والفوضى التي اعقبت تلك الكوارث تلاشت من الوجود كل المشاريع والأعمال العمرانية العظيمة التي انشئت في العصر القديم، الواحد بعد الآخر بحيث لم يبق اليوم شيء منها. فقد انهار سد نمورد الترابي الذي كان قد انشيء على نهر دجلة وهبط منسوب الماء في النهر نحو 25 قدماً، فأدى ذلك إلى جفاف النهرين العظيمين: النهروان ودجيل، وقد تحولت الأراضي الواقعة على ضفتي نهر دجلة في القسم الأعلى منه إلى صحراء، ولم يكن القسم الأدنى منه أحسن حالاً من الأول. وقد شق نهر دجلة له طريقاً من ضفته اليسرى قرب مدينة الكوت وبدد مياهه في الأهوار الواقعة على حدود فارس، في حين ان المجرى القديم الذي كان يمر بواسط وتلو لم يعد يصلح لسحب المياه إلا في أيام الفيضان وبمقادير محدودة. وفي الوقت نفسه أنهار السد القديم الذي كان على نهر الصقلاوية فأدى هذا إلى اغمار المنطقة الواقعة غربي بغداد وضياع مشاريع الري هناك. أما القنوات التي كانت تأخذ مياهها من الفرات منذ زمن قديم وهي: عيسى وصرصر وملكا وكوثي واراكتو وصراة والنيل والترس فقد عفت آثارها لكثرة الترسبات التي تراكمت فيها فانقطعت عنها المياه الجارية حتى انتهى الأمر في أيامنا هذه أن صار نهر الفرات البابلي مجرى صغيراً لا أهمية له وصارت معظم مياهه تنحدر إلى اهوار النجف. وباهمال نهري دجلة والفرات وتركهما وطبيعتهما اقفرت الأراضي المرتفعة التي كانت تروى منهما

في الأزمنة القديمة وأخذ النهران يجريان في الأراضي الواطئة والأهوار الواقعة في اقصى غرب الدلتا وشرقها.

79 ـ ولولا إدخال زراعة الرز في العراق لكانت الحالة أسوأ مما هي الآن بكثير. فقد ساعد هذا على تحول مساحات كبيرة من الأهوار إلى حقول زراعية ثمينة. ولا يعرف الوقت الذي أدخل فيه الرز إلى هذه البلاد أول مرة. لكن هذا المحصول يلي التمور في الأهمية بالنسبة إلى حاصلات البلاد اليوم.

الفصل الثالث

سني المجاعة في عهد يوسف

سني المجاعة في عهد يوسف

80 ـ ان جنة عدن ومشهد طوفان نوح كانا في أرض الكلدانيين والبابليين، وطن إبراهيم والمنفى الذي سيق إليه أحفاده بعد 1500 عام حيث ظلوا في الأسر هناك مدة سبعين سنة[1]. لقد أعادت خيام بني إسرائيل الجميلة المنسقة التي كانت تمتد في سهل موآب، إلى ذاكرة بلعام منظر القنوات الجميلة في وطنه الأصلي، تلك القنوات التي كانت قد غرست على ضفافها الأشجار. وقد كان الأسرى اليهود يستريحون تحت ظلال هذه الأشجار نفسها، فيجلسون ويبكون[2] عندما يأخذ التعب منهم مأخذه من جراء العمل المستمر الناشئ عن رفع الطمى من مياه بابل. واليوم تقع ابنية بابل التي يخيم عليها الفقر والبؤس في وسط التراب، في حين أن منافستها القديمة، أرض مصر، تتمتع برخاء لم تشهده قط في تاريخها. والوصف الذي نقرؤه في الفصول الأخيرة من سفر التكوين عن سني الرخاء والمجاعة في عهد يوسف إنما تخص مصر والنيل. وهذا الوصف هو موضوع بحثنا الآن.

81 ـ ولدينا سجلات لأربع مجاعات حدثت في مصر، وكانت

---

(1) العدد. الإصحاح الرابع والعشرون: 5، 6.

(2) المزامير: 137.

هذه المجاعات كلها ذات أمد طويل. أولاها مجاعة يوسف التي ورد ذكرها في العهد القديم[1]. وثانيتها المجاعة التي سجلت على جدار قبر بابا الواقع في مدينة القاب في مصر العليا. وثالثتها المجاعة المدونة على صخور شلال أسوان. أما الرابعة فهي التي حدثت في زمن المقريزي، وقد استمرت هذه سبع سنوات. وسنبحث في هذه المحاضرة باسهاب عن المجاعتين الأوليين.

82 ـ إن وصف المجاعة الذي دون على صخر شلال اسوان كان من عمل كهنة معبد الايليفانتين، وهذه الكتابة تعود إلى عصر متأخر. ومن المحتمل جداً أنها تشير إلى السنين العجاف التي حدثت في عهد آخر أسرة من أسر الفراعنة الذين طردهم الاسكندر الكبير من مصر.

83 ـ وقد امتدت المجاعة التي ذكرها المقريزي من سنة 1065 إلى سنة 1071 ميلادية، أو سبع سنوات. ولدينا سجلات أعلى قراءات لمنسوب النيل في الروضة خلال تلك السنين. فقد بلغ معدل منسوب المياه في موسم الفيضان في الروضة خلال القرن الحادي عشر 70 و17 متراً فوق مستوى سطح البحر. وهو بالنسبة إلى السنين السبع المذكورة كما يلي: ـ

سنة 1065 ميلادية	50 و17 متراً فوق مستوى سطح البحر
«1066 »	50 و17 متراً فوق مستوى سطح البحر
«1067 »	90 و16 متراً فوق مستوى سطح البحر
«1068 »	80 و17 متراً فوق مستوى سطح البحر
«1069 »	40 و17 متراً فوق مستوى سطح البحر
«1070 »	30 و15 متراً فوق مستوى سطح البحر
«1071 »	50 و17 متراً فوق مستوى سطح البحر

(1) التكوين. الإصحاح الحادي والأربعون: 54، التكوين. الإصحاح الثالث والأربعون: 1.

84 ـ وتدل المقارنة بين تلك المناسيب على أنه إذا كانت هناك حكومة منتظمة أمكن تأمين الحصول على غلة كثيرة جداً في سنة 1068، وغلة متوسطة خلاله أربع سنين وهي: 1065، و1066 و1069 و1071، وغلة لا بأس بها في سنة 1067، في حين أنه لم تكن هناك وسيلة لانقاذ البلاد من المجاعة الشديدة في 1070، سوى استخدام السدود المنشأة اليوم على النيل.

وكيفما كانت الحال فأننا إذا رجعنا إلى تاريخ مصر نجد ان الخليفة المستنصر بدأ يحكم البلاد في سنة 1041م وكان عمره إذ ذاك سبع سنين وقد استمر حكمه مدة طويلة، كانت مصر خلالها معرضة لاضطرابات خطيرة لا نظير لها في تاريخها. وفي عام 1062م بدأ الصراع العنيف بين الاتراك والزنوج فعصفت في جميع البلاد حروب أهلية عنيفة ولم يكن من الممكن تطهير القنوات من الترسبات التي تراكمت فيها الأمر الذي سبب نقصان المحاصيل، فاضطر الناس إلى أكل لحوم البشر. وكانت الوسيلة الوحيدة لانقاذ الموقف هو حدوث فيضان عال جداً، ولكن ذلك لم يحدث.

85 ـ وبهذا يظهر أنه يمكن حدوث مجاعة شديدة في أوقات الحروب والاضطرابات الداخلية، إذا تخلل فيضان واطئ جداً سلسلة فيضانات واطئة، مع العلم بأنه لا يشترط في هذه السلسلة من الفيضانات ان تكون واطئة جداً. فإذا أضيف إلى هذا مانعلمه بالبداهة من أنه يمكن للقوة البشرية ان تتعمد أحداث فيضانات واطئة، عندئذ لا يكون من الصعب على المرء الفطن المغامر الملم بالحوادث ان يتنبأ بحدوث مجاعة تستمر عدة سنوات في أيام الحروب والاضطرابات الأهلية، عندما كان الناس يعتمدون فيها على الارواء الحوضي.

86 ـ إن السيرة الاصلية ليوسف[1]، ابتداء من نشأته في فلسطين، وبيعه للضابط المصري في مدينة زوان، ودخوله السجن، وتوليه الحكم، وكريم خلقه الذي تجلى في عفوه عن أخوته ـ كل هذه الأمور إنما دونتها براعة عبقري من عباقرة العالم. ولا يوجد في جميع سير الرجال ما يفوق من حيث الروعة والبلاغة السيرة التي نقرؤها في الفصول الأخيرة من سفر التكوين. وحيث أن السيرة الاصلية كتبت[2] باللغة العربية أو البابلية ثم ترجمت إلى اللغة الكنعانية التي تسمى اليوم العبرية، فيمكن القول ان قسماً من الخيال الساحر الذي نلمسه بين ثناياها إنما هو من وحي اولئك المترجمين. ومن المحقق إن هؤلاء المترجمين أضافوا إليها بعض التفاصيل غير الضرورية التي تتعلق بأسرة يوسف وتسلسل نسبه، تلك التفاصيل التي شغف بها المؤرخون الذين جاؤوا فيما بعد. فقد ذكروا[3] اسم زوج يوسف واسم أبي زوجته، في حين أنه لا توجد لهذين علاقة بباقي القصة. ولم يذكر في القصة اسم فرعون وذلك جرياً على عادة المؤرخين القدماء في عصر الآباء. وهذا على غرار ما جرى عليه المؤرخون بعد سقوط القسطنطينية فأنهم يتكلمون عن «سلطان تركيا وشاه إيران» دون أن يذكروا اسميهما الحقيقيين. وسنرى الآن أمامنا صفحة مهمة من تاريخ مصر المتعلق بعصر يوسف.

87 ـ كان يوسف سجيناً في مدينة زوان، عاصمة مصر السفلى، في أواخر عهد الهكسوس. وهم من القبائل الآسيوية التي احتلت

---

(1) التكوين. الإصحاح التاسع والثلاثون إلى الإصحاح السابع والأربعون.

(2) لاحظ الأستاذ المحترم سايس ما يلي: «هل كانت السيرة الأصلية مدونة باللغة المصرية؟ يوجد فيها قليل من الكلمات المصرية».

(3) التكوين. الإصحاح الثاني عشر: 40.

مصر وحكمتها نحو 500 عام، في الفترة الواقعة بين العصر الذهبي لاوسرتسن وامنمحت، من ملوك الأسرة الثانية عشرة، والعصر الذهبي لتحتمس وامنحوتبس، من ملوك الأسرة الثامنة عشرة. وكان رعمسيس الكبير أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة، معروفاً باضطهاد اليهود. وفي عهد خليفته منفتاح خرج بنو إسرائيل من مصر. ويقول بروكش باشا: إن الحوادث التي ورد ذكرها في الفصول الأخيرة من سفر التكوين وقعت حوالي سنة 1730 قبل الميلاد ويستمر قائلاً: إن الفرض القائل ان يوسف إنما بيع في مصر في زمن الهكسوس أمر محتمل جداً، وذلك إذا رجعنا إلى ما كتبه جورجيس سنسيلوس حيث يرى أن يوسف حكم مصر في عهد أبوفيس الذي كان عصره قبل بداية الأسرة الثامنة عشرة ببضع سنين. وهناك نقش قديم عثر عليه في مدينة ألقاب لا بد أن يكون كاتبه قد عاصر يوسف. ويدل ذلك النقش على أن تاريخ يوسف وتاريخ الهسكوس أمران متلازمان وأنه لا يمكن فصل احدهما عن الآخر.

88 ـ وفي النقش المذكور ما يلي: «بابا الذي بُعث مرة أخرى يقول: أحببت أبي. مجدت أمي. احبني أخوتي وأخواتي. خرجت من باب بيتي بقلب حنون. وقفت هناك بيد منتعشة. حبتني الآلهة برخاء كثير في الأرض. جمعت الغلال كصديق لاله الحصاد. كنت محترساً في موسم البذر. وحينما وقع القحط الذي ظل سنين عديدة، وزعت الغلال في المدينة في كل سنة من سني القحط!».

89 ـ لا يمكن ان يكون هناك أدنى شك في أن العبارات الأخيرة المذكورة في هذا النقش تشير إلى حادثة تاريخية. فالمجاعة التي تستغرق سنين عديدة تشير إلى فترة تاريخية معينة من الزمن. وإذا كان من النادر جداً حصول مجاعات متعاقبة في مصر، وكان بابا هذا

عاش وعمل في زمن الملك سكينين رآتا الثالث أيام كان يوسف يمارس سلطته في مصر في عهد أحد ملوك الهكسوس، فليس هناك ما تستنتجه من هذه الأمور سوى ان سني المجاعة الطويلة التي حصلت في أيام بابا إنما هي المجاعة التي استمرت سبع سنين في زمن فرعون أحد ملوك الرعاة. وكان فرعون يوسف يسكن في مدينة زوان، وكان بلاطه على نمط مصري خالص، ولم يقر في بلاطه اللغة السامية إلا إنه أصدر أوامره باقرار كلمة «ابرك» أي «اركع»، الكلمة التي لا تزال في قاموس اللغة الهيروغليفية. وقد كتبت ألقاب الحاجب الذي اشترى يوسف باللغة السامية، ولو إن كلمة «سارى» أو حاجب كتبت باللغة المصرية.

90 ـ والوصف الذي نذكره الآن عن السنوات الأخيرة التي انحط فيها حكم الهكسوس في مصر مقصور على المعلومات التي ورد ذكرها في العهد القديم[1] فيما يتعلق بوصف الاضطراب والتبلبل اللذين استحوذا على مدينة زوان في ذلك الوقت، حينما كان حكامها يرتابون من دخول العناصر الآسيوية الصديقة المجاورة لهم، أرض مصر وذلك خوفاً من أن يطلعوا على عورات البلاد. ان ارتياب الحكام من المهاجرين الذين كانوا يأتون إليهم من الجنوب أمر طبيعي، ولكن الحقيقة ان ارتيابهم من المهاجرين القادمين من الشرق يدل على أن اعداءهم الوارثيين كانوا على أبواب البلاد وكانوا في وضع يستطيعون معه اغراء البدو الموالين للمصريين، أولئك البدو الذين لم يكونوا يترددون في تقديم المساعدات سواء للصديق أم للعدو، بشرط أن يحصلوا منه على رشوة.

---

(1) التكوين. الإصحاح الثالث عشر: 6.

91 ـ وقد ترك المشهد الروائي الرائع الذي وصف فيه ما جرى ليوسف وزوجه فوطيفار[1]، أثراً عميقاً في الشرق في أيامنا هذه. ويظهر ذلك من القصص العديدة الموضوعة على لسان «يوسف وزليخا». وكان الأمر كذلك في العصور القديمة. والنص المصري القديم لهذه القصة محفوظ في «قصة الأخوين» المكتوبة على ورقة بردي الدور بيني التي يرى المشتغلون بالآثار المصرية أنها تعود إلى الأسرة التاسعة عشرة، أي بعد عصر يوسف بـ 400 سنة تقريباً.

وخلاصة هذه القصة: أنه كان هناك أخوان يعيشان سوية. فأكبرهما، وهو انبو، كانت له زوجة وبيت يسكنه. أما الأصغر، وهو باتو، فكان يخدم أخاه في أعمال الحقل. وصادف ذات مرة ان ذهب باتو إلى بيت أخيه لجلب البذور التي يبذرها في الحقل. فلما رأته زوجة أخيه راودته عن نفسها وأغرته بالطريقة نفسها التي حاولت بها سيدة يوسف اغراءه. بيد أنه رفض ذلك بإباء، وغضب غضباً شديداً لاعتقاده بأن ما تقدمت به ينافي شيمة الوفاء لأخيه الذي كان بمثابة أب له. وقد اظهر فزعه لفضاعة «الجرم الخطير» الذي همت به الزوجة. فرجع إلى الحقل ووعدها بأن لا يظهر شيئاً مما جرى لهما في البيت. وبعد خروج باتو عملت الزوجة في جسمها جروحاً بليغة. ولما رجع انبو في المساء إلى بيته وجد زوجته في تلك الحالة فسألها الخبر فسردت عليه قصة مختلقة شبيهة بالقصة التي جرت ليوسف حين اتهمته سيدته. وقد هم انبو بقتل أخيه إلا أنه تريث في الأمر حتى ظهرت له براءته مما اتهم به. فقتل زوجته بدلاً من أن يقتل أخاه.

92 ـ وفي السنين الأخيرة من نهاية حكم الهكسوس أخذ ملوك

---

(1) التكوين. الإصحاح التاسع والثلاثون: 7 ـ 20.

مصر العليا يتحررون تدريجياً من الحكام الأجانب الذين كانوا في مصر السفلى. وكانت هناك حرب مستمرة بين التاجين. وفي هذا الوقت كان ملك مصر العليا يسيطر على الحالة بحزم ويتأهب للهجوم بالاسطول على مدينة هوارس، مفتاح مصر السفلى. وتجد وصفاً رائعاً لهذه الحملة مكتوباً على صخور مقبرة ألقاب.

93 ـ وكانت الزراعة في جميع الأراضي المصرية في ذلك الوقت تعتمد على نظام الري الحوضي بحيث أن حياة البلاد كانت متوقفة على ارتفاع المياه التي في النهر إلى المستوى الذي تستطيع معه الجداول الموصلة بين النهر والأحواض أن تسحب المياه الكافية لاملاء تلك الأحواض. وقد انشئت سدة هوارس على القناة الموصلة بين النيل وبحيرة موريس لتكون أداة لتنظيم مياه النهر وضبط مناسيبها. فكانت بهذا الاعتبار المفتاح الذي كان يسيطر به على مصر السفلى. وقد تركت لنا عبقرية شكسبير وصفاً رائعاً لهذه الحالة:

هكذا يعملون، يا سيدي
فهم يأخذون المياه من النيل
حسب مقاييس كتبت على الهرم؛
فهم يعرفون، بوساطة ارتفاعها وانخفاضها
واعتدالها إذا كان يتبعها قحط أو مجاعة
فكلما ارتفع الماء في النيل
كان المحصول وفيراً وعندما
ينخفض ينثر الباذر
بذره في الطين وفي الوشل
وبعد قليل يأتي زمن الحصاد

94 ـ وصادف في السنين الأولى من احتلال مصر إني خرجت أبحث عن مكان لإنشاء خزان للنيل في وادي الريان بدلاً من خزان أسوان، إذ وصلت أنا وهيئة المهندسين الذين كانوا يشتغلون معي، إلى منطقة الفيوم. ولشد ما استولى علي العجب حين عثرت في أحد الأيام في منحدرات الصحراء على طبقة كثيفة من محار النيل. وكان ارتفاع الأرض في تلك المنحدرات 50 و22 متراً فوق مستوى سطح البحر. وقد ارسلت المهندسين شرقاً وغرباً للتحري عن المنطقة التي انتشر فيها هذا المحار وعن مستوى الأرض فيها فوجدوا إن مستوى الأرض في جميع الأمكنة التي انتشر فيها المحار يزيد عن مستوى سطح البحر بمقدار 50 و22 متراً. ففي هذه البقعة المحدودة كانت بحيرة موريس القديمة. (وأذكر هنا على سبيل الاستطراد أنني ذهبت، بعد مرور عشرين سنة على هذا الحادث، إلى العراق للبحث عن إنشاء خزان لنهر الفرات في صحاري بلاد العرب. ففي ذات يوم عثرت على طبقة كثيفة من محار الفرات منتشرة في الصحراء، وأخذ المهندسون يقيسون مستوى تلك البقعة فوجدوا أنها تعلو في جميع أقسامها على مستوى سطح البحر بمقدار 25 متراً. ففي هذا الموقع كان الخزان التاريخي العظيم للبابليين). وقد سحرتني بحيرة موريس كما سحرت كل من ألم بتاريخها، وكانت الوسيلة التي اهتديت بها إلى فهم قصة المجاعة التي حدثت في عصر يوسف.

95 ـ وفي عهد الملك مينس كان النيل يتصل بالبحيرة التي عرفت فيما بعد باسم بحيرة موريس، بوساطة قناة خاصة تصل بينهما، لكن الملك امنمحت أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة هو الذي وسع هذه القناة وزاد في عمقها وأزال الحواجز الصخرية التي كانت في مجراها وجعل من البحيرة الصغيرة التي كانت في عهد مينس بحيرة كبرى تسع

مياه اعظم فيضانات النيل. وكان أولئك الفراعنة القدماء عباقرة في هندسة الهيدروليكا. هذا إلى أنهم كانوا حكماء وشجعاناً أيضاً. وقد جمع السير همبري براون في كتابه «الفيوم وبحيرة موريس» كل المعلومات المتعلقة بهذه البحيرة وها أنا اقتبس منه ما يلي:

96 ـ كان هيردوتس الذي كتب تاريخه نحو عام 430 ق.م أول من وصف هذه البحيرة قال) «والآن بعد أن كان هرم اللابرنت كما وصفته فان البحيرة المسماة ببحيرة موريس التي بنى على شواطئها ذلك الهرم أعجب وأغرب من ذلك الهرم.

97 ـ «فماء هذه البحيرة لم يؤخذ من منابع محلية لأن الأرض في تلك البقعة جافة جداً وعديمة المياه، ولكنه يجلب إليها من النيل بوساطة ترعة. وتستغرق المدة التي تمتلئ فيها هذه البحيرة بالماء ستة شهور. ولا بد لتفريغها من الماء من ستة شهور أخرى أيضاً. وفي كل يوم من أيام الستة شهور التي تفرغ فيها البحيرة من المياه تدخل خزينة البلاد وزنة من الفضة من صيد الأسماك. أما خلال الستة أشهر التي تدخل فيها المياه من النيل إلى البحيرة فتبلغ الضريبة التي تؤخذ من صيد السمك عشرين مناً من الفضة كل يوم».

98 ـ وذكر سترابون الذي كتب تاريخه عام 20 ق.م «أنه كانت في مصر أيضاً بحيرة موريس، وهي واسعة بحيث يصح ان تسمى بحراً، وتشبه البحر في لونه.

99 ـ «وهكذا فإن بحيرة موريس قابلة، نظراً إلى اتساعها وعمقها، لاستيعاب الزائد من مياه النيل وقت الفيضان فتقي الدور والحقول من الغرق، وعندما ينخفض ماء النهر فإن المياه المخزونة في هذه البحيرة ترجع إلى النيل بوساطة ترعتين في كل طرف من

أطرافها وذلك للاستفادة منها في الري. وهناك ناظمان في نهايتي الترعتين لضبط دخول المياه وخروجها من البحيرة».

100 ـ ويقول ديودورس الصقلي الذي كتب عن تاريخ الفترة نفسها: «لما كان ارتفاع مياه النيل لا يخضع لقاعدة مطردة، وكان رخاء المملكة يتوقف على وجود كمية معينة من المياه في النهر بصورة مستمرة طول أيام السنة، حفر الملك موريس بحيرة مفيدة في شكل مدهش، وواسعة في صورة لا يمكن ان تصدق، حفر هذه البحيرة لتكون خزاناً للمياه الزائدة وانشأ قناة تمتد من النهر إلى البحيرة. وطول هذه القناة عشرة أميال، وعرضها 300 قدم وبهذا استطاع ان يسيطر على المياه التي تدخل البحيرة والتي تخرج منها حسب ما تقتضيه الحاجة».

101 ـ وأقدم هؤلاء المؤرخين الذين كتبوا عن البحيرة يرجع إلى سنة 430 ق. م في حين أن البحيرة نفسها كانت قد نظمت مياهها في زمن الملك امنمحت أحد ملوك الأسرة الثالثة عشرة نحو 2300 ق.م. وكان يوسف، كما ذكرنا، في مصر حوالي سنة 1730 ق.م عندما كانت بحيرة موريس تقوم باداء وظيفتها كناظم للنيل.

102 ـ ويقول السير همبري براون أيضاً نقلاً عن نص عربي نشره المستر كوب وايتهاوس في مقال له عنوانه: «توسع مصر». وقد نشر المقال في مجلة (كونتمپرري ريفيو) في عدد شهر أيلول لسنة 1887م وهذا النص مأخوذ من مخطوط عربي يعود إلى الكاردينال مازارين، ويدل هذا النص على ان يوسف هو الذي جفف بحيرة موريس وأوجد منها منطقة الفيوم. ومع ان هذا العمل انجز بعد عصر بحوالي 1500 سنة إلا أن صلة يوسف البحيرة كانت شديدة كما سنرى ذلك فيما بعد.

103 ـ وقد وصف السير همبري الدور الذي قامت به هذه البحيرة. ويمكن الرجوع إلى كتابه المعنون: «الفيوم وبحيرة موريس». كانت مساحة سطح البحيرة 1700 مليون من الأمتار المربعة، وتسع 50 ألف مليون متراً مكعباً من الماء، وفي امكانها سحب 13 ألف مليون متر مكعب من مياه الفيضان بشرط أن تصرف أولاً مياهها في النيل وتصل إلى مستوى واطئ. وفي امكانها أيضاً سحب ثلاثة آلاف مليون متر مكعب بالإضافة إلى الكمية المتقدمة وذلك في كل سنة لم تستغل فيها تلك الكمية. وفي إمكانها أن تحيل الفيضانات العالية جداً إلى فيضانات معتدلة، ولو تعمد شخص الضرر، أو كان غراً جاهلاً، وفتح هذه البحيرة في أيام الفيضانات الاعتيادية فإنه يتمكن من ان يحرم قسماً كبيراً من أراضي مصر السفلى من الزراعة، وذلك لأن نظام الري الحوضي الذي كان سائداً في تلك المنطقة لا يمكن تأمينه إلا باستغلال المياه التي تجعل مناسيب النيل في أيام الفيضان عالية.

104 ـ ولما كان ملك مصر السفلى لا يجرأ في أوقات الاضطرابات التي نحن في صددها، على كسر السدود في حالة الفيضان العالي وذلك لئلا يحال بينه وبين العمل على سدها بعد الفيضان، فلا بد وأن تكون البحيرة قد انخفضت كثيراً بسبب تبخر كمية عمقها متران ونصف من الماء في السنة. وبنتيجة ذلك فلا بد أن يكون النيل قد زود البحيرة بمقادير عظيمة من المياه خلال السنة الأولى التي اعقبت كسر السدود الذي قام به فرعون مصر العليا وبهذا استفحل أمر المجاعة الناجمة عن ذلك.

105 ـ لقد ذكرت مراراً إن المستر كوب وايتهاوس كان على حق حين أكد أن هوار الهكسوس هي هوارة الحالية التي يقوم فيها هرم

اللابرنت والتي كان فيها اللابرنت والسدان العظيمان المنظمان لمدخل المياه إلى بحيرة موريس ومخرجها. وكان هذان السدان معمولين من التراب وكانا متوازيين ومهمتهما غلق المنخفض الذي يصل النيل ببحيرة موريس. وفي تلك الأيام كان النيل ينساب في مجريين من أمام صدر القناة المؤدية إلى بحيرة موريس مكوناً بذلك جزيرة نوم القديمة. والذي فرض هذا الوضع الخاص على النيل هو وضع المياه التي كانت تأخذها بحيرة موريس في الفيضانات العالية. وما يسمى اليوم بحر يوسف، وهو الواقع في لاهون، كان يؤلف في تلك الأيام، أما المجرى الرئيس للنيل كما كان الحال في عهد الملك مينس، أو أنه المجرى الذي كان يأخذ كمية كبيرة من مياه النيل إلى البحيرة عند فتح السدين الواقعين في هوارة عجلان وهوارة المقطع. وبهذا يصبح من الممكن السيطرة على النيل. وفي الحقيقة إن إهمال بحيرة موريس الذي حصل بعد مضي 1500 عام على عصر يوسف يمكن أن يكون سببه تقلص حجم لاهون الذي هو فرع من النيل وذلك لقلة استعمال المنفذ المؤدي إلى هذه البحيرة نظراً إلى التنظيم الذي حصل في مصر السفلى في السداد والجداول التي انشئت هناك مما أدى إلى اندراس المنفذ بحيث لم يعد قادراً على السيطرة على مياه النيل. وقد تحول هذا المنفذ بعد ذلك فصار إلى ما نسميه اليوم جدول بحر يوسف. أما بحيرة موريس فهي البقعة التي يطلق عليها اليوم اسم مديرية الفيوم.

106 ـ والسد الأعلى يقع على ضفة لاهون الحالي، وهناك هرم في حده الشمالي الأقصى، وتقع اليوم على هذه الضفة نفسها قريتا «هوارة عجلاه» و «لاهون» (السدة). أما السد الآخر فيقع في قناة واسعة محفورة داخل طبقة صخرية بعمق يكفي لدخول مياه الفيضانات

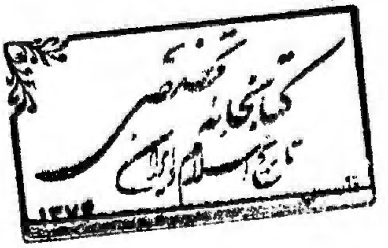

الاعتيادية إليها، ويطلق على هذه البقعة اليوم بحر يوسف، وكان يتصل بهذه القناة سد ترابي آخر يقطع صدر نهر البانس، وهذا السد يفتح في الفيضانات العالية الخطرة. وعلى هذا السد الثاني تقع قرية «هوارة المقطع» وهناك هرم الهوارة أو هرم هوارس الواقع في الجهة الشمالية القصوى من هذا السد. ويقع اللايرنت «هيكل السد» بين الهرم المذكور والسد الكبير على القناة. ويغلب على الظن أنه كانت هناك مجموعة من الأبنية المؤلفة من قلاع ومعابد وقصور، وكانت هذه الأبنية منسقة في شكل يحول دون اقتراب أحد من أهالي الأراضي المجاورة إلى هذا السد. أما الطرف الآخر لهذا السد الكبير فكان هوارة المقطع وهو جزيرة محصنة تحيط بها المياه من جميع جهاتها. وكانت المسافة بين السدين ستة أميال، ولهذا كان من الضروري الاستعانة باسطول نهري إذا أريد الاستيلاء على السد الأسفل الكبير. وكان فتح هذا السد لامرار المياه إلى البحيرة أمراً سهلاً جداً، إلا ان إعادة انشائه من جديد بعد مرور مياه الفيضان منه كان أمراً صعباً جداً بحيث أنه يتطلب جهوداً كثيرة حتى بالنسبة إلى فراعنه مصر.

107 ـ وكان هوارس هذا المفتاح الحقيقي لمصر السفلى، وخاصة في عصر الهكسوس عندما كانت مصر السفلى ومصر العليا في حالة حرب. والأثريون الذين نسوا في دراستهم هذه الحقيقة وهي ان قضية مصر إنما هي قضية الري (تلك الحقيقة التي أكدها مراراً نوبار باشا)، ذهبوا إلى أن موقع مفتاح مصر السفلى في عصر الهكسوس كان قرب مستنقع السربوني الواقع في جنوب بور سعيد. ويشبه هذا أن يقول أحد في أيام الحروب الفرنسية الانكليزية: ان ليفربول كانت مفتاحاً لانكلترا وأن مرسيليا كانت مفتاحاً لفرنسا، بدلاً

من دوفر وكالي. وليس في هذا مبالغة. فإن المفتاح لجميع البلدان الزراعية هو المنبع الذي يزود البلاد بالمياه لا المخرج الذي تنفذ منه المياه. ويؤثر عن محمد علي باشا، أول حاكم في مصر، أنه قال: «هب لي نواظم في صدور القنوات، وعند ذلك أكون سيد مصر» وهذا الأمر غير مقصور على مصر وحدها، بل يشمل العراق أيضاً، فالحل الحقيقي لمشكلات البلاد يبقى في الغالب أمراً مشكوكاً في نجاحه ما لم يؤخذ بنظر الاعتبار الجانب الذي يتعلق منه بالري.

108 ـ ويرى بروكش ان موقع هوارس كان قرب القنطرة شمال الإسماعيلية، وسأنقل كل ما كتبه في هذا الصدد ليرى القارئ كيف إن كل دليل من أدلته يؤيد ويؤكد ما ذهب إليه المستر كوب وايتهاوس في الوقت الذي يناقض ما ذهب إليه هو نفسه. قال بروكش: «لا شك ان مدينة هوارس (بيت الرجل) مدينة مانيثو المسماة افاريس والتي اشتهرت في زمن الهكسوس، تقع في سيثرويت نوم، في شرق نهر بوسلياك المتفرع من النيل، ويظهر أنها كانت تتصل بالنهر بوساطة قناة تربطها به. ولما كان الطمى التدريجي الذي يحصل في القعر القديم للنهر يجعل من الصعب تعيين مواقع المدن التي كانت على ضفافه، كان هناك أمل ضعيف في العثور على موقع مدينة افاريس الضائعة. وكيف كان فلا بد أن نبحث عن هوارس في مكان مجاور لبحيرة بدليل ان النقش الموجود على قبر آحمس الذي كان ملاحاً في مدينة ألقاب الواقعة جنوب مدينة طيبة يثبت ان آحمس شهد المعركة البحرية التي حصلت بين الأسطول المصري والاعداء الأجانب في مياه پازيكتو قرب مدينة هوارس. وهذا الاسم، رغم وجود اداة التعريف المصرية (پا) في أوله، ذو مسحه سامية. ولا شك أنه يتصل بأصول الكلمات السامية التي انتقلت إلى اللغة المصرية».

109 ـ وقد عاش ما نيثو حوالي سنة 300 قبل الميلاد (أو بعد الهكسوس بـ1400 سنة) وفي أيامه اتحدت مصر العليا ومصر السفلى وكان عدوهما المشترك في جهة الشرق: الآشوريون والبابليون والفرس، فكان من الطبيعي ان تحصن حدود مصر في أقصى الجهة الشرقية من الدلتا. ولكن في زمن يوسف أي في سنة 1730 قبل الميلاد، كان الهكسوس وعرب آسيا يمثلون وحدة مشتركة ضد أهالي مصر العليا فكان من الطبيعي ان تحصن مصر السفلى في ملتقى الحدود بين مصر العليا ومصر السفلى في ذلك الوقت: أي في صدر قناة بحيرة موريس.

هذا إلى ان بحيرة موريس كانت في زمن مانيثو قد بدأت تندرس وتحل محلها مقاطعة الفيوم الحالية. ثم إن أهمية الحصن الذي كان يسيطر على ناظم القناة، ذلك الحصن الذي كان يتوقف عليه مصير مصر السفلى، قد زالت بعد ان طرد الهكسوس من مصر طرداً أبدياً.

110 ـ فلا يمكن أن يتصور أحد امكان زوال مدينة بكاملها وهي مشيدة في أراضي سهلة منبسطة كراحة اليد، في حين أن جدرانها قوية، وفيها حامية يبلغ عدد أفرادها 240 ألف جندي، حسب ما وصفها ما نيثو. وأن كان هذا الوصف مبالغاً فيه على العادة المتبعة في ذلك الوقت. كما أن وقوع المدينة في سيثرويت نوم على القسم الأخير من بلوسياك المتفرع من النيل والمندرس الآن، أمر لا يمكن الأخذ به أيضاً. إذ لو كانت هوارس واقعة في هذا المحل لكانت في وضع لا تستطيع معه أن تقف في وجه أي هجوم يقع عليها من جهة الجنوب. ولو قام أحد بسد فرع بلوسياك، كما فعل موسى، لانقطع عنه الماء العذب فوراً. فلو حاول اسطول ما في هذه الحالة التغلب

على المدينة من الجنوب لقضت عليه القوات البرية جميعها وذلك بالنظر إلى تعاريج نهر بلوسياك وملتوياته وضيق مجراه. ولو فرض أنه كانت في مصر في زمن الهكسوس عشرون هوارس، وفرض أنه توجد اليوم عشرون هوارة في مصر (بدلاً من القريتين المتقاربتين الموجودتين الآن في لاهون)، لكان من الضروري ان يكون موقع هوارس التي كانت في ذلك الوقت مفتاحاً لمصر السفلى، في أيام محاربتها لمصر العليا، في المحل الذي يمكن فيها ان يسيطر على فيضان النيل قبل دخوله مصر السفلى، أي هوارة المقطع الواقعة على السد الأسفل، وهوارة اكلان الواقعة على السد الأعلى، مع الهرمين: اللابرنت وسدلاهون (لو ـ هنت «السد»). فاجتماع هذه المنشآت كلها في هذا المكان واهميتها ودلالتها الأسمية في هذا اليوم امارة قاطعة على أنها كانت تؤلف الحصن العظيم للحدود الذي انشأه الفاتحون الأجانب الذين حكموا مصر السفلى مدة أربعمائة عام.

111 ـ إن أوصاف هوارة وبحيرة موريس والجدول الذي يتصل بها، تتفق وما ذكره بروكش عن هوارس. كانت بازكتو بحيرة موريس، في حين أن الفيوم الحالي كان پايوم «أي منطقة البحيرة».

112 ـ وسنبحث الآن في الكتابات التي وجدت في المقبرة الصخرية في مدينة ألقاب حسب ترجمة بروكش التالية: ـ

113 ـ يقول أحمس قائد البحارة المتوفى، ابن ابانا:

«كان أبي ضابطاً مع الملك سكينين ـ را المتوفى. ثم اني عينت في منصبه في السفينة «العجل» في عهد الملك احمس الراحل (مؤسس الأسرة الثامنة عشرة). وقد كنت لا ازال إذ ذاك صبياً لم

اتزوج بعد ثم لما كونت لنفسي بيتاً خاصاً دعيت إلى الخدمة على ظهر سفينة «الشمال» وذلك لما كنت عليه من القوة. وكان واجبي أن أرافق الملك ـ طال عمره ودامت له الصحة والرخاء ـ فأسير على قدمي وهو راكب في عربته.

114 ـ لقد حاصروا مدينة هوار. وكان واجبي ان أقف موقف الشجاع البطل أمام جلالته. ثم رقيت رتبتي وأرسلت إلى العمل في باخرة (الصعود في ممفيس). لقد جرت معركة بحرية في بازكتو التابعة لهوارس. أما أنا فقد قاتلت الأعداء من قريب فربحت المعركة وقطعت يداً.

115 ـ وبعد هذا حدثت معركة جديدة في ذلك المكان وحاربت هناك من قريب، وقطعت يداً.

116 ـ وقد حاربوا في بقعة (تكم) الواقعة جنوب مدينة هوارس. هناك أسرت شخصياً. وغطست في الماء. واستولوا على هوارس. وأسرت ثلاث أشخاص. وقد منحهم جلالته لي كعبيد.

«وقد حاصروا مدينة (شروهان) في السنة السادسة. وأحتلها جلالته».

117 ـ لا شك أن «تكم» الواقعة جنوب مدينة هوارس هي لاهون الحالية الواقعة على السد الأعلى وتسمى اليوم السد نفسه.

118 ـ أما (شيروهان) فيمكن أن تكون «زوان» حسب نطق الهكسوس أو هي (تانيس) (زارتان في اللغة المصرية) عاصمة الهكسوس لأنه ورد في الكتابات المذكورة أنه بعد الاستيلاء على هذه

المدينة طورد المنهزمون في آسيا، ولو أن الاستيلاء على زوان لم يرد له ذكر بهذا الاسم.

119 ـ وتنهي الكتابة، بعد أن تصف لنا معارك كثيرة أخرى في آسيا الغربية وفي بلاد النوبة، بما يلي:

«لقد عمرت الآن طويلاً، وبلغت سن الشيخوخة فسيكون مصيري مصير كل الذين هم على وجه الأرض. وسأذهب إلى العالم السفلي وسأوضع داخل التابوت الذي صنعته لنفسي».

120 ـ فإذا فرضنا ان هوارس كانت واقعة في هوارة، موقع السد العظيم لبحيرة موريس، فإن من السهل فهم تاريخ المجاعة التي حدثت في عصر يوسف[1]. وبهذا ننتقل من عالم الشك إلى عالم الحقائق.

121 ـ ويقول لنا التاريخ أن يوسف دخل مصر في العهد الأخير للهكسوس الذين كانوا يحكمون مصر السفلى في الوقت الذي كانت فيه الأسر الطيبية تحكم مصر العليا. وكانت بين التاجين حروب مستمرة. وقد امتد حكم الهكسوس في بعض الأوقات إلى الجنوب قرب مدينة طيبة. غير أن نتائج تلك الحروب كانت تجري بصورة تدريجية في غير صالح مصر السفلى. وفي حوالي الوقت الذي وصل فيه يوسف أرض مصر كان ملك مصر العليا قرب هوارس، الناظم لبحيرة موريس ومفتاح مصر السفلى.

122 ـ وطبيعي أن يكون خوف فرعون من ضياع الحصن العظيم لبلاده وما يترتب على هذا الضياع من نتائج وخيمة هو الذي أوحى

---

(1) التكوين. الإصحاح الثاني عشر: 29 ـ 32.

إليه ذلك الحلم الذي رأى فيه البقرات السمينة والهزيلة والسنابل السمينة والرقيقة الملفوحة بالريح الشرقية[1]. وكانت ليوسف قابلية عظيمة جداً، وكان داهية، هذا إلى أنه كان من الذين يخافون الله. وقد ظل في السجن سنوات عديدة علم خلالها من رفقائه المسجونين الذين كان كثير منهم أسرى من أهالي مصر العليا، أن هدف ملوك طيبة هو بناء اسطول بحري للاستيلاء على مدينة هوارس. وقد ادرك الموقف. ولما جيء به إلى حضرة فرعون لم يتردد أن يصارحه بالحقيقة بكل جرأة ويقترح عليه ابعاد حاشيته ومستشاريه المتملقين، وإن ينصاع للأمر الواقع وهو أن مصر العليا كانت تتهيأ لبناء اسطول عظيم وأنها عندما تنتهي من ذلك فإن احتلال هوارس سيكون أمراً ممكناً لها. لقد مرت سنون رخاء ونعمة على المملكة لكن الفراعنة الأول لم يكونوا سريعي التهيء لما تحتاجه البلاد، وقد أشار يوسف على فرعون بضرورة انتهاز الوقت لخزن الحبوب والأرزاق لتكون ذخراً للبلاد في سني الجدب المقبلة فيما لو استولى الأعداء على سد هوارس. وقد بوشر فعلاً بجمع الحبوب على مقياس واسع. ولكن ملك مصر العليا تمكن من هدم سدة هوارس بدون أن يحتاج إلى الاستيلاء على الحصن العظيم الموجود هناك، وذلك بالتعاون بين اسطوله البحري وقواته البرية. ولما انهدم السد أخذت مياه النيل تصب في بحيرة موريس وبهذا عجز النيل عن أن يغمر الأراضي الزراعية الواقعة على ضفتيه وهنا حلت المجاعة المتوقعة وكانت «جرحاً في جسم المملكة».

123 ـ ومن المحقق أن أثر هذه المجاعة لم يكن مقصوراً على

---

(1) التكوين. الإصحاح الثاني عشر: 1 ـ 8.

مصر السفلى فحسب بل أنه شمل قسماً من مصر العليا، أي المنطقة الواقعة مباشرة أمام قناة بحيرة موريس وشمالها كجزيرة نوم ونوم ممفيس التي احتلها الهكسوس سابقاً كما يظهر من اسم السفينة (الصعود إلى ممفيس) التي عهد بقيادتها إلى الضابط البحار الذي رقي قبل سقوط مدينة هوارس. وهناك احتمال قوي ان بابا الذي عثر على قبره في مدينة القاب، ذلك القبر الذي دون عليه وصف المجاعة ذات «السنين العديدة»، كان حاكماً في هذه المقاطعات، وأنه ساعد على تخفيف وطأة تلك الكارثة. ويظهر أن بابا كان يتوقع أيضاً أن يجيء اليوم الذي تقل فيه كمية الحبوب فشرع في خزنها في سني الرخاء وذلك لأنه لا يتمكن من خزنها في أيام القحط. ولعل انباء جمع ملك مصر العليا للحبوب كانت قد تسربت من الحدود فأيقظت انتباه يوسف وجعلته يدرك الغاية المقصودة من تهيئة الاسطول.

124 ـ فإذا كان بابا حاكماً في المنطقة المجاورة لمدينة ألقاب، حيث لا يتوقف حدوث الضيق فيها على وجود انخفاض واطئ جداً في منسوب النيل بل يكفي لحدوثه مجرد انخفاض اعتيادي في منسوب مياه النيل فربما كانت هناك سلسلة انخفاضات متعاقبة في مياه النيل في أيام فسببت حدوث مجاعة دامت عدة سنين كانت الحبوب خلالها توزع لا في مدينة ممفيس فحسب بل في مدينة ألقاب أيضاً. وإذا اضيف إلى هبوط منسوب الماء في النهر، أن الفلاحين الذين يستعان بهم في الأحوال الاعتيادية على رفع المياه بوساطة الشادوف لتكثير الحاصل، كانوا قد جندوا للحرب فان اثر هبوط النيل يكون مضاعفاً في القاب. أما في مصر السفلى فإن فتح قناة بحيرة موريس بالإضافة إلى هبوط مياه النيل يكون سبباً في حدوث كارثة عظمى.

125 ـ وكما أن ضياع المحصولات الزراعية اليوم في كندا واستراليا والارجنتين يؤدي إلى حدوث مجاعة شديدة في انكلترا كذلك كان الحال في مصر فإن ضياع محاصيلها سبب حدوث مجاعة في فلسطين، الأمر الذي حمل أخوة يوسف على السفر إلى مصر للبحث عن الحنطة[1].

126 ـ ويظهر من بعض الكتابات الموجودة في تل العمارنة أن فلسطين كانت في بعض السنين تعتمد على مصر في تموين نفسها بالغلال. قال الأستاذ المحترم سايس: «يقول ريب حداد حاكم كيبال في إحدى رسائله إلى ملوك مصر: لا توجد عندي حنطة، لا توجد عندي حنطة للأكل ماذا اصنع لحلفائي؟ فالأبناء والبنات وآثاث بيوتهم سلم إلى بلاد ياريماتا وذلك لاستبقاء حياتهم! عندئذٍ يلبي الملك نداء خادمه المخلص ويرسل الحنطة بالسفن».

127 ـ ومن المحقق ان سرعة تعالي أمر يوسف لم تكن ناشئة عن مجرد نصيحته لفرعون بأن يخزن الحبوب ليتمكن من تلافي القحط المتوقع، بل عن الحاحه الشديد على فرعون بأن ينشئ أسطولاً بحرياً وأن يبذل اقصى جهده لدحر اسطول العدو. وقد عمل الملك بنصيحة يوسف فدحر سفن العدو وتبع ذلك تجديد بناء السد، الأمر الذي أعاد إلى مصر الحياة الاعتيادية فأعقبت سني المجاعة سنو الرخاء الكثير التي سبقتها سنون كانت الأراضي فيها قد تركت بوراً لئلا تنهك من الزراعة.

128 ـ ويظهر من كتابات آحمس البحار أنه قبل مضي سنين طويلة على المعركة السابقة، حدثت معركة جديدة في المكان نفسه حيث سقطت على اثرها هوارس. إن ذكرى مجاعة مريعة ذات أمد طويل

---

(1) التكوين. الإصحاح الثالث: 1.

كان غاية ما أمكن أن يحتمله سكان مصر السفلى ولهذا استسلموا للعدو. وهكذا أصبح ملك مصر العليا، ملك طيبة، حاكماً على مصر، واتحدت مصر العليا ومصر السفلى مرة أخرى في ظل فراعنة الأسرة الثامنة عشرة.

129 ـ ولو ان تبدل الحكام كان خسارة عظيمة لبني إسرائيل الذين كانوا يمتون إلى الهكسوس بصلة الدم والقرابة، إلا أنه كان ابتهاجاً عظيماً لمصر نفسها كما لاحظ ذلك بروكش:

«لقد مرت أيام البؤس والشقاء والاضطهاد، فانهار الحكم الاستبدادي، وسقطت هوارس وفتح حصن شيروهان عنوة. وفي السنة السادسة من حكم الملك آحمس مؤسس الأسرة الثامنة عشرة للفراعنة تحررت مصر من نير الاضطهاد الاجنبي الطويل».

130 ـ لم يوضع نير الاضطهاد في رقاب الأجانب على الفور، وذلك لأن ملوك الأسرة الثامنة عشرة الذين حكموا البلاد من سنة 1600 ق.م إلى سنة 1400 ق.م (كما لاحظ ذلك الأستاذ المحترم سايس) لم يكونوا قساة في شكل غير لائق تجاه الاجانب القاطنين في البلاد. وفي الحقيقة أن آخر ملوك هذه الأسرة امنحوتب الرابع حاول أبدال ديانة آسيا الغربية بالديانة المصرية. وكانت هذه الخطوة سبباً في ألقاء الرعب والحنق في قلوب المصريين. وقد بلغ الرعب والحنق أقصى حد لهما في زمن ملوك الأسرة التاسعة عشرة الذين كان ثاني ملوكهم رعمسيس الكبير، فرعون، المضطهد الحقيقي لبني إسرائيل «الملك الجديد الذي لم يكن يعرف يوسف»[1] والآن وضع

(1) الخروج. الإصحاح الأول: 8.

نير الاضطهاد في رقاب الأجانب المتكتلين في الزاوية الواقعة شمال شرقي الدلتا، أرض صوعن التي ورد ذكرها في العهد القديم. والفصول الأولى من سفر الخروج تقص علينا المأزق الحرج الذي حل ببني إسرائيل وكيفية خلاصهم من ذلك المأزق على يد موسى.

131 ـ ولدينا سجلات تبين مناسيب الفيضان في الروضة لمدة طويلة تربو على ألف سنة. وتدل هذه السجلات على أنه لم تحدث خلال تلك المدة الطويلة فيضانات واطئة متتابعة سنة بعد أخرى بحيث تجلب كارثة للبلاد. وقد مر بنا عند الكلام على تاريخ سني المجاعة السبع التي ذكرها المقريزي أنه يمكن حدوث مجاعة شديدة ذات أمد طويل إذا ما حصلت في البلاد فيضانات واطئة أقل من المعتاد في سنين متعاقبة، وتخللها فيضان واحد واطئ جداً، وكان ذلك في أيام الحروب الأهلية والاضطرابات حيث لا يمكن كري الأنهر بصورة جيدة. وفوق هذا فقد اثبتنا فيما مضى امكان أحداث فيضانات واطئة عمدية في تلك الأيام القديمة التي شاع فيها نظام الري الحوضي حينما كان منفذ بحيرة موريس يقوم باداء وظيفته، كما اثبتنا امكان التكهن بحدوث مجاعة عظيمة. لكن كان من الضروري لهذا الأمر ان تكون مصر العليا ومصر السفلى في حالة حرب، وأن تصبح مصر العليا سيدة الموقف بحيث تستطيع هدم السد في صدر منفذ بحيرة موريس، كل هذه الأحوال غير الاعتيادية إنما كانت متوفرة في عصر يوسف فقط ولم تتوفر في أية فترة أخرى من تاريخ مصر. ويؤيد ذلك كتابتان قديمتان وجدتا على قبرين في مصر العليا يرجعان إلى ذلك العهد.

132 ـ وإذا ألقينا نظرة عامة على الوضع نجد أنه لم يكن لدى

حكام مصر العليا طريقة ناجحة للتغلب على الهكسوس وطردهم من مصر السفلى سوى انشاء اسطول والاستعانة به للاستيلاء على السد الواقع في صدر المنفذ العظيم القديم للنيل ثم هدمه بعد ذلك. وهذا ما حصل فعلاً حيث هدم كل ما كان هناك من حصون عظيمة بما فيها اللابرنت وغيره من المنشآت وهكذا اضحت الدلتا رهن مجاعة قاسية.

133 ـ وطالما سمعت بعضهم يقول: إن هذه الفروض والتخمينات يمكن أن تحدث للناس في هذه الأيام. بيد أنها كانت غير مقدورة لهم في تلك العصور البدائية. وللجواب على هذا اقول: أنه بقدر ما كان حكام العرب الهكسوس في حاجة إلى مشورة رجل أجنبي ذكي يرشدهم، كان حكام مصر العليا الوطنيين في غنى عن هذه المشورة الأجنبية. فقد كانت الاهرام موجودة في زمن يوسف، وكان نظام الري الحوضي في وادي النيل سائداً وناجحاً طيلة ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة قبل عصر يوسف. وقد دام نجاحه 3500 سنة بعد عصر يوسف، وكانت أراضي الدلتا الواطئة قد استصلحت قبل عصر يوسف بستمائة سنة. وقد كان منفذ بحيرة موريس، وهو إحدى عجائب العالم القديم، يقوم على حراسة تلك الثروة كلها ويحول دون الاخطار الناجمة من الغرق. ونحن اليوم لم نوفق إلى احياء عشر أراضي الدلتا الواطئة كما أننا لم نضمن حتى سلامة هذا العشر من خطر الفيضان. وكانت قضية مصر قبل خمسمائة وثلاثة آلاف سنة هي قضية الري، وكان الري في ذلك الوقت أهم بالنسبة إلى مصر من الوقت الحاضر.

الفصل الرابع

الأوبئة العشرة وعبور البحر الأحمر

الأوبئة العشرة وعبور البحر الأحمر

134 ـ وظل اعقاب الملك الذي لم يكن يعرف يوسف، سنين عديدة، على عرش مصر، حينما اختار الله موسى ليخرج بني إسرائيل من أرض العبودية. وكان موسى قد تهذب بكل حكمة المصريين[1]، ولكنه دون كتاباته باللغة البابلية التي كان حتى فراعنة ذلك العصر، مضطرين إلى استعمالها في مراسلاتهم مع الآسيويين. ولعله تعلم هذه الكتابة البابلية أثناء مكوثه في مصر أو في حوريب، ومن المحتمل أنه قام برحلة إلى أور الكلدانيين، ودرس هناك في المكتبات والهياكل التي كان يعرفها أسلافه، وتدل الكتابات القديمة على أن بني إسرائيل الذين كانوا يقطنون في أرض جاسان، كثيراً ما قاموا بجولات في آسيا الغربية، ويؤيد هذا ما ورد في التوراة: «وبنو افرايم التسعة قتلهم رجال (جت) المولودون في الأرض لأنهم نزلوا ليسقوا ماشيتهم. وناح افرايم أبوهم أياماً كثيرة[2]. (أخبار الأيام الأول. الاصحاح السابع: 1) ودعيت زوج موسى في موضع من العهد القديم ببنت يثرون كاهن مديان، وفي موضع آخر منه بالكوشية أو البابلية[3] (الخروج. الاصحاح الثاني، العدد. الاصحاح السابع). وكوش اسم

---

(1) أعمال الرسل. الإصحاح السابع: 22.

(2) أخبار الأيام الأول. الإصحاح السابع: 21، 22.

(3) الخروج. الإصحاح الثاني: 16، 21، الإصحاح الثاني عشر: 5.

كان يطلق على بابل في عصر موسى، وفي عصر الأنبياء كان يطلق عليها اسم اثيوبيا[1]. ولعل يثرون هذا كان أحد البابليين المثقفين وكان موسى يرى قيمة كبيرة لآرائه، وربما كانت ابنته هذه تنظر باستخفاف إلى أخ زوجها وأخته المنحدرين من سلالة أقل منها منزلة، ومن ثم تولدت، لسوء الحظ، الضغائن والاحقاد بين أهل بيت موسى. وقد ألمَّ موسى إلماماً شديداً بشريعة حمورابي التي كانت يومئذ القانون الرسمي لآسيا الغربية، والتي كانت مدونة باللغة البابلية. ومن المحتمل أنه كتب الوصايا العشر على ألواح الآجر، على الطريقة البابلية التي كانوا يصنعون فيها الفخار، فكان في إمكانه أن يرميها على الأرض فيكسرها ثم يصنع أخرى غيرها[2].

135 ـ وقد ذهل موسى الذي كان قد نشأ على عبادة آلهة مصر ذات الثغاء، وعلى شعائرها الباردة المملة ـ ذهل لما رأى الديانة البابلية وما تنطوي عليه من أفكار ممتعة، وترانيم راقية في الصلوات. فظهرت له آثار القدرة الآلهية في تلك الأيكة التي كانت تشتعل بالنار في وسط الصحاري[3]، وسمع أصوات السماء في صورة زوابع تناجيه من قمة جبل سيناء[4]. ولما كانت خيام المديانيين تمتد عبر بلاد العرب، من حوريب وسيناء إلى الفرات الأسفل قرب أور الكلدانيين، كان من السهل على موسى أن ينتقل من محل إلى آخر في هذه المنطقة. ففي مدينة أور الكلدانيين هذه رأى أن عبادة الإله يهوا (ويلفظ أيا في الترجمات الأوروبية غالباً) قد شاعت بين

(1) العدد. الإصحاح الثاني عشر: 1.
(2) الخروج. الإصحاح الثاني والثلاثون: 19.
(3) الخروج. الإصحاح الثالث: 2.
(4) الخروج. الإصحاح التاسع عشر: 19.

سكانها، وقد ترك اسم هذا الإله السومري القديم، يهوا، (انه هو)، جهوفا، انطباعاً قوياً في نفس موسى[1]. وكان هذا الإله معبود إبراهيم في أور الكلدانيين الواقعة على حافة الأهوار والتي اتخذها إبراهيم مسكناً له. وقد احتلت آراء السومريين القدماء عن هذا الآله، في نفس موسى مكانة أعظم من آراء البابليين المتأخرين الذين كانوا يؤلهون مردوخ[2]. ولم يكن يهوا (جهوفا) غير إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وكان اكتشاف موسى لهذا الاسم الذي كان معروفاً لإبراهيم، كما يقول لنا سفر التكوين، بوساطة الوحي[3]. وقد اندفع موسى، بقوة هذا الوحي، من حوريب مسرعاً إلى بلاط فرعون. وهكذا تحول ذلك الرجل ضعيف الخائف إلى بطل حقيقي.

136 ـ وغضب بنو إسرائيل وأظهروا رغبة جامحة في التخلص من العبودية الطويلة الأمد التي كانوا عليها. وكان مسخرو الشعب الإسرائيلي قساة، إلا أنه كان لهم بعض العذر حين طلبوا من الشعب أن يصنع لهم الآجر دون أن يجهزوه بالتبن اللازم لذلك، كما تدل على هذا السجلات التاريخية[4]. وقد عثرت في الخرائب القديمة في الدلتا على عشرات من هذا الآجر الذي لم يكن يحتوي على غير التبن المطلى بالطين. ولا شك إن الذين صنعوا هذا الآجر هم الأسرى الذين كانوا يتحينون الفرص لاعلان الثورة. وكان مسخرو الشعب يجهزون الأسرى بكمية كافية من التبن لصنع مقدار معين من الآجر، ولكن هؤلاء الاسرى سرعان ما كانوا يبددون هذا التبن بصنع

---

(1) التكوين. الإصحاح الحادي عشر: 31.

(2) الخروج. الإصحاح الثالث: 6، 14.

(3) التكوين. الإصحاح الثاني والعشرون: 14.

(4) الخروج. الإصحاح الخامس: 7.

كمية من الآجر لا تفي بالغرض المطلوب مطلقاً، وكانت نتيجة هذا أن ضربوا وارغموا على ان يجمعوا كمية من التبن لاكمال العمل الذي كانوا قد كلفوا به. وأخذ الاسرى الذين يسلكوا هذا السلوك يشعرون بأن لهم هناك مجالاً للخلاص، كما أوضح لنا ذلك سفر الخروج حيث يقول: ولما خرج بنو إسرائيل من مصر كانوا متجهزين بالعدة أو الاسلحة[1]، وخرج معهم موسى مرفوع اليد مظهراً أنه يكاد يكون نداً لفرعون[2]. وقد كان لهذا الأمر أهمية عظيمة بالنسبة إلى خروج بني اسرائيل من مصر. وتقول التوراة: إن بني إسرائيل طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً، فأعارهم المصريون ذلك، ثم سلب بنو إسرائيل المصريين هذه الأشياء. والذي استظهره من هذه العبارة أن بني إسرائيل أرادوا ان يتستروا بهذا الوصف البشع الذي قالوا فيه: أنهم أخذوا هذه الأشياء مكافأة على الأعمال التي قاموا بها سنين عديدة بدون أن يحصلوا من المصريين على أجرة في مصر لقاءها.

137 ـ وقد وصفت الفصول الأولى من سفر الخروج وبعض فصول من سفر المزامير[3]، القصة الرائعة لهبوط النيل الشديد في مدينة صوعن، أو في الزاوية الشمالية الشرقية من مصر السفلى، ذلك الهبوط الذي اعطى لبني إسرائيل الفرصة للتخلص من العبودية، وهي الفرصة التي استغلوها استغلالاً تاماً بقيادة موسى. أما الأوبئة العشرة، عدا الثامن والتاسع منها. فلا يمكن وقوعها في صورة

(1) الخروج. الإصحاح الثالث عشر: 18.
(2) الخروج. الإصحاح الرابع عشر: 8.
(3) الخروج. 12. المزامير: 78.

متتابعة إلا في شمال شرقي مصر السفلى في منطقة سهول صوعن. وأما الوباءان الأول والثاني اللذان قيل إن السحرة دبروهما تقليداً فلم يكن وقوعها بالأمر النادر. في حين أن الأوبئة الباقية، عدا الثامن والتاسع، لا يمكن حدوثها إلا إذا هبط النيل هبوطاً غير اعتيادي. وهذا أمر يمكن وقوعه مرة في كل قرن أو في خلال سلسلة قرون متتابعة.

138 ـ وكانت معظم مساكن بني إسرائيل في أرض جاسان أو وادي توميلات[1]، وهو الوادي الضيق الطويل المزروع الذي يمتد من شرق الزقازيق إلى غرب الإسماعيلية. وقد وصفت هذه البقعة في سفر التكوين بأنها «أفضل الأرض»[2] وهذا الوصف مطابق للواقع لأنها البقعة الوحيدة الواطئة في الدلتا الشرقية حيث حبتها الطبيعة بنعمة الماء الغريني العذب في كل مكان منها. وهذه الميزة التي امتازت بها هذه البقعة من الأرض هي التي مكنت بني إسرائيل من التخلص من شر الأوبئة الكثيرة التي أثرت تأثيراً محزناً في المصريين الذين كانوا يقطنون منطقة صوعن. وتدعى اليوم خرائب تانيس أو صوعن التي كانت عاصمة مصر السفلى مدة مئات من السنين[3]، «صان الحجر» وهي تقع بين المنصورة الكائنة على فرع دمياط للنيل وبين القنطرة الواقعة على قناة السويس. وكان في وادي توميلات ألف بئر وكانت مياه هذه الآبار تصرف لري الأراضي، هذه المنطقة كانت في وضع حسن إلا أنه بعد أن انشئ في عام 1863 جدول

(1) التكوين. الإصحاح السابع والأربعون: 6 .
(2) التكوين. الإصحاح السابع والأربعون: 6.
(3) العدد. الإصحاح الثالث عشر: 22.

الإسماعيلية ذو المياه العذبة في مستوى عال وفي أرض رملية، استحال قسم من هذا الوادي، بصورة موقتة، إلى مستنقع. وهذه المياه العذبة سوف تكوِّن بصورة تدريجية ضفافاً قوية لهذا الجدول وذلك بسبب الطمى الذي تحمله معها، وسوف لا يمضي زمن طويل حتى تستعيد أرض جاسان رخاءها وخصوبة تربتها القديمين.

139 ـ ويجدر بنا في هذا المقام أن ننقل حرفياً المقدمة التمهيدية التي جاءت في العهد القديم عن الأوبئة، وذلك لأنها تصور لنا الحالة تصويراً جميلاً رائعاً: «وهذه أسماء بني إسرائيل الذين جاؤوا إلى مصر مع يعقوب جاء كل إنسان وبيته... ومات يوسف وكل أخوته وجميع ذلك الجيل. وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيراً جداً وامتلأت الأرض منهم. ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف. فقال لشعبه هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا... فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس في أرض جاسان المكان الذي كانوا يسكنون فيه... ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلاً كل ابن يولد تطرحونه في النهر لكن كل بنت تستحيونها[1].

140 ـ «وحدث في تلك الأيام الكثيرة إن ملك مصر مات وتنهد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية... وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان. فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم.

---

(1) الخروج. الإصحاح الأول: 1، 6، 8، 22.

لماذا لا تحترق العليقة. فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال... هو ذا صراخ بني إسرائيل قد أتى إليّ ورأيت أيضاً الضيقة التي يضايقهم بها المصريون فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر... تدخل أنت وشيوخ بني إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون له الرب إلّه العبرانيين التقانا فالآن نمضي ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب الهنا. ولكني أعلم إن ملك مصر لا يدعكم تمضون ولا بيد قوية. فأمد يدي وأضرب مصر بكل عجائبي التي اصنع فيها وبعد ذلك يطلقكم»[1].

141 ـ والرأي المسلم به عموماً أن فرعون الذي اضطهد بني إسرائيل هو رعمسيس الكبير أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة الذي دام حكمه 77 سنة من (1311 ق.م. إلى 1234 ق.م)، وقد عبرت التوراة عن مدة حكمه الطويلة تعبيراً جميلاً بقولها: «في تلك الأيام الكثيرة»[2]. وكانت أخت هذا الملك، أو ابنته، هي التي قامت بتربية موسى[3]، ورعمسيس هذا هو الذي هرب موسى من وجهه[4]. وتوجد مومياء هذا الملك في المتحف المصري. وقد اتسغرب بعض النقاد وجود مومياء رجل ذكرت التوراة أنه غرق. والواقع أنه لم يرد في التوراة ذكر لغرق فرعون، وكل ما ورد فيها: أنه غلب وغرق جيشه[5]. أما فرعون نفسه فلم يغرق[6] كما سنرى ذلك فيما بعد.

---

(1) الخروج. الإصحاح الثاني: 23، الإصحاح الثالث: 1 ـ 4، 9، 10، 18، 20.
(2) الخروج. الإصحاح الثاني: 23.
(3) الخروج. الإصحاح الثاني: 5، 6.
(4) الخروج. الإصحاح الثاني: 15.
(5) الخروج. الإصحاح الرابع عشر: 27.
(6) الخروج. الإصحاح الخامس عشر: 4.

وكان خروج بني إسرائيل من مصر في عهد منفتاح بن رعمسيس الكبير، وذلك في عام 1230 ق. م على وجه التقريب.

142 ـ وقد ورد في سفر المزامير وصف الوباء الأول في صورة موجزة: «حول مياههم إلى دم وقتل أسماكهم»[1] وبهذا يشر إلى المياه الغرينية الحمراء لفيضان النيل. وهذه المياه لا تقتل السمك بل إنها مفيدة له جداً. ولتفسير الصحيح لهذا النص هو المفتاح لفهم كل الأوبئة الباقية. وعندما جئت إلى مصر عام 1883، قبل أن تنشأ النواظم عى ذنائب فروع النيل الصغيرة، كانت العادة الجارية أن تسد هذه الفروع بسدود ترابية تقام في وسط الأنهر بصورة مستعجلة على بعد نحو عشرين ميلاً من المصب. وكان الغرض من إنشاء هذه السدود هو رفع منسوب المياه في هذه الفروع وذلك ليتسنى اغمار الأراضي وارواء الحقول المهيئة لزراعة القطن. وفي مثل هذه الأحوال كان قطع المياه العذبة بصورة مفاجئة يفسح المجال لدخول مياه البحر في ذنائب الأنهر فتموت الأسماك المحصورة فيها بالميريادات نتيجة لدخول مياه البحر المالحة. وقد شاهدت في بعض المناسبات فروع النيل وهي مغطاة بهذه الأسماك الميتة التي كانت تطفو على سطح الماء حتى كاد يكون لونه أبيض. وفي هذه الأيام التي يتبع فيها نظام الارواء المستديم تقام هذه السدود عادة في شهر مارت. أما في الأزمنة القديمة التي كان النظام الحوضي فيها سائداً في البلاد، فقد كانت هذه السدود نفسها تنشأ في وسط الفروع الصغيرة للنيل في شهر آب، عندما تجيء مياه الفيضان الحمراء وذلك لكي يرتفع منسوب الماء في الفروع ثم تدخل المياه الحمراء الغرينية

(1) المزامير. الإصحاح السابع والعرون: 29.

في الأحواض التاريخية لوادي النيل. وكان بنو إسرائيل الذين سكنوا في منطقة الحدود قرب ذنائب الفروع، في المكان الذي يقطنه البدو اليوم، يرون في كل سنة ميريادات من الأسماك الميتة في الوقت الذي كانت فيه المياه الحمراء تصل إلى هناك، فنسبوا موت هذه الأسماك إلى المياه الحمراء. وهذا التعليل لا يخلو من أساس منطقي معقول.

143 ـ وكانت الجماعات القوية التي تستوطن جنوب منطقة صوعن مباشرة تنشئ لها، في حالة هبوط النيل هبوطاً شديداً بحيث تكون المياه فيه قليلة، سدوداً ترابية في المجاري العليا لفروع النهر حيث تتصل هذه الفروع بالبحر في أقسامها السفلى، وهذا ما يؤدي إلى فناء عدد كبير من الأسماك التي كانت تعيش في هذه الفروع قبل أن تقام تلك السدود الترابية. وفي حالة استمرار هبوط مياه النيل تبقى هذه السدود مدة الفيضان كلها وذلك لتحويل مياه النهر إلى الأحواض العليا وابقائه هناك إلى أن يحين موسم البذر الشتائي. والسبب في هذا راجع إلى أن فسح المجال لتسرب المياه من هذه الأحواض، قبل أن يحين موسم البذر، يؤدي إلى ضياع نصف الحاصلات، ويمكن أن يؤدي إلى ضياعها كلها فيما إذا كان الفيضان واطئاً. وقد شاهدت خلال فيضان عام 1888 الواطئ، على ضفة آخر حوض من أحواض مقاطعة قنا جماعة من فلاحي (قنا) وهم مدججون بالسلاح وذلك ليحولوا دون اقتراب أي فلاح من جرجا، المقاطعة المجاورة لهم من تلك الضفة، خوفاً من أن يكسر هذا الفلاح السدة ويحول المياه إلى أحواض جرجا. وهكذا كان الحال في الأزمنة القديمة في فروع النيل الصغيرة في الدلتا. فلا شك إن الجماعات القوية التي سكنت في مقدم السدود كانت تقوم بمراقبة ضفاف الأحواض لكي تحول بالقوة دون وصول المياه إلى الأقسام الواقعة في الشمال، إلى

ان يحين موسم البذر، حوالي تشرين الثاني. وفي هذا الوقت تكون معظم المياه التي في الأحواض قد ضاعت بالامتصاص والتبخر.

144 ـ أما المياه الزائدة عما تحتاج إليه هذه الأحواض فكانت تأخذ طريقها إلى منطقة صوعن. ومع أن كميات هذه المياه الزائدة كانت قليلة، وكانت تصل إلى هذه المنطقة في وقت متأخر، إلا أنها كانت تكفي لتزويد الأرض بالرطوبة الضرورية للزراعة، ولو أن الحاصلات كانت قليلة بالنسبة إلى سعة الأراضي هناك. ومع هذا فلم تكن تبقى قطرة من الماء لتصل إلى الأراضي المالحة الواقعة قرب البحيرات.

145 ـ وابتدأ الوباء الأول في اوائل شهر آب، وقد سبب موت كل الأسماك التي كانت في الأقسام السفلى من فروع النيل[1]. وتبع ذلك موت كل الأمساك التي كانت في الترع والبحيرات التي انقطع عنها الماء العذب. ولما كانت مياه آبار أرض صوعن[2] مالحه، كان من الضروري لسكان هذه البقعة أن يقنعوا بشرب المياه الراكدة القذرة التي يحصلون عليها من البحيرات والبرك الواقعة قرب الأنهر. وكان بنو إسرائيل يشاهدون سنوياً، عند مجيء مياه النيل الحمراء في موسم الفيضان، هلاك الأسماك على مقياس أصغر. ولا شك أن هذا كان مصدر وحي للسجلات التي تقول إن عرَّافي مصر كانوا يعملون مثل هذا بسحرهم[3]. وربما كان المقصود بهولاء العرافين هم مهندسو الري. ويضيف العهد القديم إلى ذلك قوله: إنه بعد مضي سبعة أيام

(1) الخروج. الإصحاح السابع: 20، 21.
(2) الخروج. الإصحاح السابع: 24.
(3) الخروج. الإصحاح السابع: 22.

ضرب الرب النهر[1]. ونستنتج من هذا أن الوباء الأول كان فجائياً، وكان قصير الأمد، وذلك لأن المياه المالحة طغت على كل المجاري في فترة اسبوع واحد وقتلت كل ما فيها من الأسماك.

146 ـ وقد أوضح الدكتور دبليو. اف. هيوم مدير المسح الجيولوجي في مصر السبب في كون مياه الآبار في أرض جاسان عذبة في حين أنها في منطقة صوعن مالحة فقال: «يظهر لي أنه ربما كان من الممكن لنا أن نفكر في المسألة كما يلي: كان هناك فرعان للنيل أحدهما يمر بتوميلات والآخر يمر بفاقوس، والأول أقدم من الثاني. ولهذا أمكن للفيضان السنوي الذي يمر بتلك الأرض ان يزيل، إلى حد كبير، الاملاح الموجودة في منطقة توميلات، ولكنه لم ينجح في إزالة الأملاح الموجودة في منطقة «صان الحجر» نظراً إلى هبوط مستوى النيل هناك. فكان على بني إسرائيل، وعلى المصريين أيضاً، أن يبحثوا عن الماء في أماكن بعيدة من النيل، فوجدوا أن مياه فيضان السنين السابقة لم تعد إلى حوض النهر أو أنها لم تتجمع فيه وذلك لعدة أسباب. وكان في منطقة توميلات الواقعة في الجنوب على بعد مسافة من البحيرة، مياه عذبة، في حين أن المياه الأخرى كانت مالحة».

147 ـ والوباء الثاني هو وباء الضفادع[2]. وقد حدث هذا عندما تدفقت المياه المالحة إلى فروع النهر وجداوله، فماتت الأسماك في الحال، في حين أن الضفادع تمكنت من الخروج إلى اليابسة فانتشرت فيها. والأرض في شهر آب جافة ومحرقة ومغطاة، في كثير

(1) الخروج. الإصحاح السابع: 25.
(2) الخروج. الإصحاح الثامن: 6.

من الأماكن، بالأملاح التي كانت تأتي بها الرياح من الأراضي المالحة المجاورة لمنطقة البحيرات. ولما لم يكن للضفادع في تلك الأراضي المحرقة ما تحتاج إليه من الماء، لجأت إلى البيوت والغرف ومخادع النوم والتنانير وأحواض المعاجن[1] فجنت من العطش ولم تكن لديها القدرة الكافية على الحركة في تلك الأراضي المحرقة. وهذا الوباء، كسابقه، كان معروفاً لبني إسرائيل، وكانوا يشاهدونه في الحالات التي تهبط فيها مياه النيل هبوطاً اعتيادياً. وقد ورد في التوراة ان العرَّافين فعلوا هذا بقوة سحرهم[2]. ولما ماتت الضفادع التي كانت في البيوت وفي الطرق وفي الحقول، جمعت على شكل أكوام فسببت رائحة نتنة في تلك المنطقة. ولم يعم هذا الحدث مصر كلها بل كان مقصوراً على منطقة صوعن.

148 ـ ولاقى الإسرائيليون الذين استوطنوا الأقسام السفلى من الأنهر، من شرور ذلك الوباء ما لاقاه المصريون أنفسهم. ولا شك أنهم كانوا يهاجرون في شهر آب من كل سنة مع قطعان الماشية التي معهم، إلى مساكنهم الأصلية في جاسان حيث لا توجد هناك جداول تتصل بالبحر في الوقت الذي كانت تتوفر فيه هناك المياه العذبة التي لا تبعد عن مستوى سطح الأرض أكثر من بضعة أقدام. وكانوا يسقون بهذه المياه «بأرجلهم» حقول الخيار والبطيخ والعدس والبصل والثوم، تلك الخضروات التي كانوا يحلمون بها في وادي التيه. ولم يرد في النصوص، حتى هذه الفترة، ذكر للفرق بين المشكلات التي واجهها الإسرائيليون والمشكلات التي واجهها المصريون.

---

(1) الخروج. الإصحاح الثامن: 3.

(2) الخروج. الإصحاح الثامن: 7 .

149 ـ ويمكن اعتبار الوباء الثالث وهو وباء البعوض (ويسمى في العهد القديم القمل إلا أنه ورد في الشروح باسم البعوض)[1] والوباء الرابع وهو وباء الذباب، وباء الحشرات الذي يحدث في النصف الأخير من آب ويستمر إلى آخر أيلول. وذلك لأن الأرض تكون في ذلك الوقت جافة ومحرقة ومغطاة في الغالب بالاملاح. وحيث أن موسم زيادة الماء جاء متأخراً، بدأ وباء البعوض. فكان البعوض في الليل وحشرات أخرى في النهار[2]، واعقب ذلك مباشرة وباء الذباب[3] الذي كان يعيش على أكوام الضفادع الميتة التي لوثت البلاد. وقد استمر هذان الوباءان طيلة شهري تشرين الأول وتشرين الثاني إلى أن جاء موسم الليالي الباردة التي وضعت حداً نهائياً لهما.

150 ـ ولم يكن حدوث وباء الحشرات الذي ظهر في صورته المرعبة، مقروناً بحدوث الفيضانات الواطئة الاعتيادية التي يندر فيها دخول المياه الحلوة إلى الأقسام الشمالية. ولقد قيل أن العرافين فشلوا في مكافحة هذا الوباء[4]. ولم تفرق التوراة بين منطقة صوعن وأرض جاسان بالنسبة إلى البعوض ولكنها حصرت، بصورة واضحة، وباء الذباب في منطقة صوعن[5] الأمر الذي يدل بطبيعة الحال على عدم وجود أسماك ميتة وضفادع ميتة في أرض جاسان.

151 ـ ويمكن اعتبار الوبائين الخامس (وباء المواشي)[6] والسادس

---

(1) الخروج. الإصحاح الثامن: 17.
(2) الخروج. الإصحاح الثامن: 17.
(3) الخروج. الإصحاح الثامن: 21.
(4) الخروج. الإصحاح الثامن: 18.
(5) الخروج. الإصحاح الثامن: 22.
(6) الخروج. الإصحاح التاسع: 3.

(وباء الدمامل)[1] اللذين نكب بهما الإنسان والحيوان معاً، وبائين ناشئين عن شرب الماء الملوث بالأقذار. أما وباء المواشي فهو منتشر في مصر بين المواشي وخصوصاً الجاموس ويعرف باسم (بربون) وفيما يلي بعض فقرات مقتبسة من مقال نشره (بيوت) بك في مجلة المعهد المصري لسنة 1889:

«لا يعرف لوباء البربون أثر في مصر العليا، أما في مصر السفلى فيظهر في الحالات التالية:

أ ـ إذا اخذت مياه الشرب من قناة صغيرة مملوءة بالنبات المائي وكان الماء فيها في حالة قريبة من الركود.

ب ـ إذا أخذت مياه الشرب من منطقة المستنقعات الواطئة التي تتجمع فيها مياه البزول والترشحات.

ج ـ إذا كانت القنوات جافة تقريباً.

د ـ إذا رجعت مياه الفيضان إلى هذه القنوات نفسها».

152 ـ وينحصر هذا الوباء، نظراً إلى نظام الري المستديم القائم الآن في مصر، في الفترة التي تبدأ بشهر حزيران وتنتهي بشهر تشرين الثاني. أما بالنسبة إلى نظام الري الحوضي الذي كان سائداً في مصر في الأزمنة القديمة، فينحصر في الفترة التي تبدأ بشهر آب وتنتهي في كانون الأول.

153 ـ وأعود فأقتبس من بيوت بك ما يلي:

«ووباء البربون لا يفتك بالصورة التي يفتك بها وباء المواشي، ولكنه كمعظم الأوبئة التي تحدث في مصر، يأتي فجأة ويزول فجأة.

---

(1) الخروج. الإصحاح التاسع: 10.

ومن النادر أن يستمر هذا المرض أكثر من اسبوع واحد في منطقة واحدة. ويقتصر فتكه على الجاموس والبقر فقط، في حين أنه لا يفتك بالخيل والبغال والحمير والجمال والأغنام، وبعد أن تظهر الأعراض الأولى لهذا الوباء على الحيوان، بعشر ساعات، فإنه يموت بالتسمم العفن. ومن النادر أن ينجو الحيوان من الموت إذا اصيب بهذا الوباء».

154 ـ وقيل أن جميع مواشي بني إسرائيل سلمت من الوبار الخامس[1] وذلك لأنها كانت تزود بالمياه الصالحة للشرب من الآبار العذبة لا من مياه البحيرات الراكدة، ولهذا السبب نفسه سلمت منه كل المواشي التي في مصر العليا، وفي بعض الأقسام الجنوبية من مصر السفلى. فكان هذا الوباء، كالأوبئة الأخرى، مقصوراً على منطقة صوعن فقط.

155 ـ ويقول الدكتور فرنك. سي. مادن عن الوباء السادس (وباء الدمامل) ما يلي: «ودمل النيل من نوع الدمامل السامة والمؤلمة بنوع خاص. وينتشر هذا الوباء في المناطق الواقعة على طول وادي النيل في أواخر الصيف وقت الحصاد غالباً، ويبقى مدة طويلة جداً. وفي الأشهر التي تكثر فيها الرطوبة بصورة خاصة تنتشر أيضاً في مصر مجموعة من الحصف والأقذار واللدغات والبراغيث والحشرات الأخرى التي تسبب المرض المعروف في مصر باسم (حمى النيل). ويبدأ هذا المرض بالحصف الطفيف ثم يتطور إلى أفظع حالات الطفح الجلدي الذي يمكن أن يذهب إليه تصور الإنسان. والعلاج الشائع لهذا المرض أن يدلك المصاب به بقطعة من قشر الرقي الذي

(1) الخروج. الإصحاح التاسع: 4، 7.

كان موجوداً في مصر في ذلك الوقت، حسب ما جاء في العهد القديم». ولعل هذا الدمل هو الذي عرف فيما بعد باسم (القرحة المصرية)، ومن المحقق أنه كان يتفشى بشدة في المناطق المزدحمة بالسكان من منطقة صوعن في أيام الفيضان الواطئ جداً حيث تختفي الخضروات والمياه الصافية النقية فيها مدة طويلة وبصورة مستمرة.

156 ـ والوباء السابع هو وباء البَرَد[1]. ولم أشاهد نزول البرد في مصر خلال اقامتي فيها مدة ثلاثين عاماً إلا مرة واحدة في شهرة نيسان سنة 1888 في جنوب بحيرة البرلس في خط العرض الذي تقع عليه منطقة صوعن نفسها. ولقد تلطف المستر اج. اي. (هرست) رئيس دائرة الانواء الجوية في مصر فزودني بمعلومات عن سقوط البرد. ويظهر من هذه المعلومات أن البرد سقط في القاهرة اثنتي عشرة مرة خلال مدة اربع وثلاثين سنة من 1876 إلى 1912، إلا أن سقوطه في جميع هذه المرات لم يكن في صورة خطرة. فاثنتان منها حدثتا في شهر اكتوبر، والعشرة الباقية كانت بين شهري شباط ونيسان. وفي شهر شباط عام 1912 سقط البرد بصورة مدمرة في بعض أقسام الدهقلية، وهي منطقة صوعن القديمة.

157 ـ ومع أني لم أر سقوط البرد المدمر في مصر إلا إني كنت أراه من حين إلى آخر في شمالي الهند، فكان يدمر حقول القمح والشعير تدميراً كلياً، فيترك مساحات من الأرض مقفرة من الزرع وهي على صورة قطع ضيقة العرض ولكنها مستطيلة، وكانت حافات هذه القطع تنتهي بخطوط مستقيمة كأنها خططت بيد مهندس. ويبلغ حجم اعظم قطعة من البرد الذي شاهدته في شمال الهند، حجم دائرة

(1) الخروج. الإصحاح التاسع: 24.

قطرها انج ونصف انج. ولما سقطت هذه القطعة من البرد قضت على حياة قطيع من الأنعام كان مربوطاً في الخلاء المكشوف، وقتلت دجاجاً كان قد لجأ إلى الأشجار.

158 ـ ولعل حدوث الوباء السابع إنما كان في شهر كانون الثاني، نظراً إلى ما ورد في التوراة من أن «الكتان والشعير ضربا. وأما الحنطة والقطاني فلم تضرب لأنها كانت متأخرة[1]، (أي أن نموها يتأخر عن ذلك الوقت). ومن الصعب اليوم تحديد الأوقات التي كانت تزرع فيها المحاصيل المختلفة في الزمن القديم في أرض صوعن لأنه لا يوجد اليوم أثر للنظام الحوضي في هذه المنطقة. أما التحديدات التي وردت في التوراة فالظاهر أنها من اختراع النساخ الذين عاشوا في فلسطين أو في سوريا فقد كانت زراعة الحنطة والقطان والكتان والشعير في هذين القطرين، موكولة إلى الاوقات التي يختارها الزارع، خلافاً لما كانت عليه الحالة في مصر حيث كان النظام الحوضي سائداً فيها، فقد كان الزارع مرغماً على أن ينثر البذور في الطين اللزج فور انسحاب المياه من الأحواض. أما الحنطة فتبذر بعد الحرث بزمن قليل، وأما القطان فلا يتأخر زرعه نظراً إلى اعتدال الهواء في الشتاء كما هو الحال في سوريا. ويبدأ في بذر الحنطة والشعير المبكر اليوم في منطقة صوعن من 25 تشرين الثاني ويمتد وقت البذر إلى 10 كانون الثاني. ولما كانت منطقة صوعن واقعة جنوب بحيرة المنزلة والبحر الأبيض المتوسط مباشرة[2]، كان تأثير البرد فيها شديداً، في حين أن أرض جاسان

(1) الخروج. الإصحاح التاسع: 31، 32.
(2) الخروج. الإصحاح التاسع: 26.

الواقعة بعيداً في الجنوب والمفصولة عن منطقة صوعن بأراضي صحراوية واسعة، سلمت من شدة البرد. ولا صلة لوباء البرد بفيضان النيل الواطئ، فيمكن حدوث وباء البرد مع وجود فيضان عال جداً.

159 ـ وقد سجل المستر دي. أ. كمرون، س. أم. ج. القنصل العام في الاسكندرية، تجاريبه عن وباء البرد فقال: «أظن من المفيد أن ادون ما شاهدته بعيني في بورت سعيد في الشتاء في أوائل هذا القرن من نزول برد مرعب جداً فيها، فقد هطلت السماء مدة قصيرة وكانت يصحب هذا المطر دوي كدوي المدافع وبرَد كالحمص وكرات التنس من الحجم، وكالمرمر في اللون. وكان هذا البرد ينزل في صورة متتابعة. وقد صور مدير البيت الذي يسكنه البحارة صورة ذلك البرد بالآلة الفوتوغرافية فظهرت قطعة منه في حجم كرة الكركت الجديدة. وقد تركت نسخة من ذلك التصوير في دار القنصلية في بورت سعيد سنة 1909 وأعتقد أن مثل هذا البرد هو الذي كان قد دمر صوعن الواقعة جنوب بورت سعيد ـ المنزلة».

160 ـ وكان الوباء الثامن (وباء الجراد) الذي حدث بين البرد والزوابع الرملية[1]، في الربيع. وقد لخص المستر أ. تي. مكيلوب المفتش العام في وزارة الزراعة معلوماته التي حصل عليها أثناء قيامه بمراقبة مكافحة الجراد في أشد خطره سنة 1915 فيما يلي: «وكان ظهور أكثر الجراد سنة 1915 من جهة الشرق عبر قناة السويس والبحر الأحمر. لكن مجموعات أخرى منه ظهرت من جهة الغرب. وكان جميع الجراد الذي شوهد في الزاوية الشرقية الشمالية من مصر السفلى يأتي من الشرق عبر قناة السويس بين الإسماعيلية وبورت

(1) الخروج. الإصحاح العاشر: 13، 14.

سعيد. وقد ظهرت الموجة الأولى منه عام 1915 من منطقة واحة بحاريا في شهر كانون الثاني، أما المجموعة الأخيرة منه فظهرت من منطقة اسوان في يوم عيد الميلاد. وكان عدد الجراد الذي ظهر خلال الفترة من 7 شباط إلى مايس أكثر منه في أية فترة أخرى».

161 ـ وفي شهر إبريل عام 1911 كنت أتجول بين دير الزور الواقعة على نهر الفرات وبين مدينة حلب فشاهدت الأراضي هناك وهي مغطاة بكميات كثيرة من الجراد الذي كان لا يزال في المراحل الأولى من انتشاره. ويرجع السبب في انتقال الجراد من المكان الذي ينشأ فيه إلى مكان آخر إما إلى حدوث جدب في المكان الذي نشأ فيه، أو زيادة عدد أفراده هناك زيادة مفاجئة بحيث تصبح الأراضي التي نشأ فيها غير قادرة على تموينه بالقوت اللازم له[1]. وقد شاهدت في ربيع عام 1915 في شرق الدلتا كميات كثيرة جداً من الجراد متجهة من الشرق، وقد سمعت بعد ذلك أنها دمرت المحاصيل التي كانت في مزارع فلسطين. وظهور الجراد في مصر في عصر الخروج لا علاقة له بالأوبئة الستة الأولى التي كانت نتيجة مباشرة للهبوط الشديد في مياه النيل ذلك الهبوط الذي يرجع إليه السبب في حدوث الوبائين التاسع والعاشر أيضاً. والبرد لا يسقط على مساحات واسعة من الأرض، بل على مساحات مستطيلة من الأراضي الريفية. أما الجراد فإنه يدمر المزروعات التي لم يصل إليها تأثير البرد. ويلاحظ أن الوباء الذي ورد ذكره في سفر المزامير (105) هو وباء الدودة التي تأكل ورق الأشجار[2]، وهذا الوباء

(1) الخروج. الإصحاح العاشر: 13.

(2) المزامير. الإصحاح الخامس والمائة: 34.

متصل اتصالاً مباشراً بهبوط مياه النيل هبوطاً شديداً. وقد قتلت هذه الدودة كل اعدائها وخاصة الضفادع.

162 ـ ولم يرد في النصوص القديمة ذكر للحقيقة الثابتة وهي نجاة أرض جاسان من خطر هجوم الجراد. لكن مما لا شك فيه إن الذي أصابها كان أمراً طفيفاً نظراً إلى أن معظم أراضيها كانت مراع، بدون أن تكون فيها حدائق وبساتين ذات فواكه وأشجار، ثم ان المزروعات الشتوية والربيعية المبكرة فيها كانت تقتصر على البصل والثوم. ولما كانت الأوبئة في أرض صوعن[1] غرب القسم الشمالي من قناة السويس الحالية، كان هبوب ربح قوية من الغرب يكفي لدفع الجراد إلى جهة المستنقعات المحيطة بالبطائح السربونية التي اطلق عليها هنا اسم بحرسوف والتي ترجمت بالبحر الأحمر وهي مساحة مغطاة بالمياه تقع في أقصى الجنوب.

163 ـ والوباء التاسع هو وباء الظلام الذي حل بدون سابق انذار[2]. وعلى العموم فأن العواصف الرملية الحارة التي تسبب انتشار الظلام في مصر أحياناً، إنما تهب من الجنوب، ويعقب ذلك، في معظم الأحيان، هبوب رياح شمالية غربية شديدة تبقى مدة يومين أو ثلاثة أيام. ومن المحقق أن وباء الظلام الذي حل بأرض صوعن كان نتيجة لهذه الرياح الشمالية الغربية التي هبت بشدة مدة ثلاثة أيام. ومن المحقق أيضاً أن القطعة الريفية المستطيلة الواقعة بين آخر حوض من حياض الري وبين حافة بحيرة المنزلة، كانت دائماً ـ وكما هي اليوم ـ مجموعة كثبان رملية مالحة ترتفع بفعل الرياح الشديدة التي إذا هبت تجعل السماء مظلمة مدة

(1) الخروج. الإصحاح العاشر: 19.

(2) الخروج. الإصحاح العاشر: 21.

أيام. أما بالنسبة إلى نظام الري المستديم السائد اليوم في البلاد فإن وجود مساحات واسعة من الأراضي المغطاة بالمياه بصورة دائمة، يمنع الرمال المالحة من التنقل على الصورة التي كانت عليها في السنين التي تهبط فيها مياه الفيضان هبوطاً شديداً، عندما كان نظام الري الحوضي سائداً في البلاد، وعندما كانت البلاد كلها بدون ماء. فكانت الرمال تنتقل في طريقها أينما شاءت، وكانت المنطقة المغمورة بمياه بحيرة المنزلة تتوقف كلية على شدة الفيضان، فكان حدوث فيضان واطئ جداً فيها يؤدي إلى بقاء مساحة واسعة من الأرض الجافة المغطاة بالأملاح القابلة للتحول إلى غبار بتأثير الرياح. وعندما تكون الرياح في حالة عنفها وشدتها فإن هذه الأملاح المتحولة إلى غبار تصبح حجاباً كثيفاً يغطي الأرض كلها[1]. وقد شاهدت مرة واحدة فقط خلال إقامتي في مصر مدة ثلاثين سنة، عاصفة رملية دامت ثلاثة أيام، وفي اليوم الأخير أحدثت ظلاماً كلياً. ولما كانت منطقة صوعن واقعة في شمال أرض جاسان، وكانت تفصلهما صحراء صلبة التربة مليئة بالحصى، وكان آخر حياض الري واقعاً في الشمال الغربي من أرض جاسان ـ لهذا كله لم يصل أثر العواصف الرملية التي اكتسحت أرض صوعن، إلى أرض جاسان إلا قليلاً[2]. وهذا السبب الذي من أجله كانت مساكن بني إسرائيل منيرة، في حين أن مساكن المصريين كان الظلام قد خيم عليها في صورة محسوسة.

164 ـ وكان آخر ما نزل بالمصريين الذين يسكنون في منطقة صوعن، من الكوارث هو الوباء العاشر (وباء موت الأطفال) الذي وصف وصفاً

(1) الخروج. الإصحاح العاشر: 23.

(2) الخروج. الإصحاح العاشر: 23.

رائعاً في العبارة التالية: «فيموت كل بكر في أرض مصر»[1] فالمياه الملوثة التي كان يشربها المصريون عدة أشهر أدت بطبيعة الحال إلى كثرة وفيات الأطفال. أما الكبار فقد نجوا من هذه الكارثة.

165 ـ وقد نجا بنو إسرائيل الذين كانوا يسكنون جميعاً في أرض جاسان ذات العيون العذبة، من خطر هذا الوباء[2]. واجتاز الملاك المخرب بأبوابهم حينما كانت أرض مصر مضروبة بآفة[3]. وقد تركت هذه العلامة الأخيرة للخلاص أثراً لا يمحى، لا في بني إسرائيل وحدهم بل حتى في الشعوب الأخرى للعالم. ويحتفل العالم المسيحي اليوم بعيد القيامة الذي هو بدل عيد الفصح عند اليهود. وكان الخلاص نفسه انجازاً مباشراً للدعوة التي ظهرت لموسى من وسط العليقة: «ولكني أعلم أن ملك مصر لا يدعكم تمضون ولا بيد قوية. فأمد يدي وأضرب مصر بكل عجائبي التي اصنع فيها. وبعد ذلك يطلقكم»[4]. ومن المعلوم أنه لم تكن هناك ضرورة لاتيان المعجزات، الواحدة بعد الأخرى، وذلك لأن مجرد حدوث فيضان واطئ جداً في أرض صوعن، وما يترتب عليه من نتائج في تلك الأيام القديمة التي كان نظام الري الحوضي فيها سائداً في مصر، كاف لتأمين خلاص الأسرى الذين رأى الرب احزانهم. فالقدرة السماوية تسلك مسلك الاقتصاد التام في استخدام مواردها كما تقتصد أحسن عائلة منظمة في هذا العالم.

166 ـ وكان خروج بني إسرائيل من مصر وعبورهم «البحر

---

(1) الخروج. الإصحاح الحادي عشر: 5.
(2) الخروج. الإصحاح الحادي عشر: 7.
(3) الخروج. الإصحاح الثاني عشر: 23.
(4) الخروج. الإصحاح الثالث: 19، 20.

الأحمر»، عقب حدوث الأوبئة العشرة في مصر مباشرة. وقد ذكرت في محاضرتي التي القيتها في الجمعية السلطانية الجغرافية سنة 1913 أن الغموض الذي نراه في قصة طوفان نوح إنما نشأ من جراء استعمال كلمة «جبل» بدلاً من كلمة «صحراء»، كذلك الحال بالنسبة إلى مسألة عبور بني إسرائيل البحر الأحمر فقد أصبح هذا العبور مستحيلاً، حسب ما ورد في القصة، وذلك بسبب أستعمال كلمة «بحر» بدلاً من كلمة «نهر». وإذا قلت اليوم لأحد المصريين، وأنت تشير إلى البحر الأحمر: ما هذا؟ فإنه يقول لك: إنه «البحر الأحمر». وإذا اشرت إلى البحر الأبيض المتوسط وقلت له: ما هذا؟ فإنه يقول لك: إنه «البحر الأبيض» أو يجيبك بالاسم الذي يطلقه على النيل الأبيض. وإذا اشرت إلى النيل وقلت له ما هذا: فإنه لا يقول لك: «إنه النيل» بل يقول: «انه البحر» في حين أنه لا يعني بذلك «البحر» وإنما يعني به «النهر» وذلك لأنه توجد لديه لفظتان مشتركتان بين البحر والنهر وهما: «البحر» و«النهر». وكذلك الحال بالنسبة إلى الماء، فلا فرق لديه بين الماء المالح والماء العذب، فكلاهما «ماء» في مقابل «اليابسة» وقد كان الأمر على هذا في الزمن القديم أيضاً. ويقول الدكتور (پنجز): لم يكن لدى السومريين لفظة خاصة للدلالة على النهر، وإنما كانت لديهم كلمة واحدة مشتركة تطلق على كل من البحر والنهر المستديم، كما كانت لديهم لفظة واحدة للدلالة على الجبل وعلى السهل الصحراوي. والعرب ينظرون إلى جميع الأشياء نظرة بسيطة. فالماء المالح والماء العذب شيء واحد في نظرهم، فهما «ماء». والتل والسهل اللذان لا تصل إليهما مياه الفيضان شي واحد في نظرهم أيضاً وهو الصحراء. والله واحد. وعندما يرقد الإنسان في سكون الليل مع الجيوش الإسلامية في

الصحراء فإنه يسمع كلمة واحدة تتعالى فمن أفواه الحراس وهي: «واحد» (الله واحد)، ومن السهل معرفة الجاذبية التي توحي بها فكرة الوحدة والبساطة هذه إلى الرجل المتجول في الصحراء فكل شيء فيها بسيط وواحد في نظره. أما في أوروبا فإن الطبيعة في أشد حالات التنوع والاختلاف، ولهذا كانت تصوراتنا عن الله وعن أعماله معقدة إذا ما قورنت بتصورات العرب. وعندما كان يسألني عربي عن ديني فإني كنت دائماً أجيبه بلغة بسيطة كالتي يستعملها العرب أنفسهم، فأقول: «الله أبونا وسيدنا عيسى أخونا» وسرعان ما كانت تسود بيننا العلاقات الطيبة والود إذ لا يوجد بين الناس من يجهل معنى الأب والأخ والواجبات التي تترتب علينا تجاههما.

167 ـ وقد ورد وصف مدينة طيبة، الواقعة على بعد 600 ميل جنوب مصب النيل، في سفر ناحوم (الاصحاح الثالث)[1] فقيل: إنها جالسة بين الأنهار وحولها المياه التي هي حصن البحر ومن البحر سورها. وهذه ترجمة ظاهرة الخطأ، فالصواب أن يقال أنها جالسة بين الجداول وحولها المياه التي هي حصن النيل ومن النيل سورها[2]. وكثيراً ما ورد في الترجمة الانكليزية للتوراة اطلاق كلمة «بحر»[3] على نهر الفرات وعلى نهر الأردن[4]. ونظير هذا ترجمة كلمتي «بحر سوف»[5] بـ«البحر الأحمر» مع إن هذا المعنى غير مقصود منهما في النص الأصلي، وإنما المقصود منهما «النهر

(1) ناحوم. الإصحاح الثالث: 8.
(2) ارميا. الإصحاح الحادي والخمسون: 36، 42.
(3) المزامير. الإصحاح الرابع عشر والمائة: 3، 5.
(4) اشعيا. الإصحاح الحادي والعشرون: 1، 9.
(5) الخروج. الإصحاح الخامس عشر: 4.

القصبي» أو «الفرع القصبي من نهر النيل» أو «المستنقع السربوني». ويقول ديودورس الصقلي في وصف هذا المستنقع ما يلي: «توجد بين كيلو سوريا ومصر بحيرة عرضها ضيق جداً، ولكنها في غاية العمق، ويبلغ طولها نحو 200 ستاده (20 ميلاً). وتدعى هذه البحيرة سربونيس. والذي يتقدم نحوها، وهو غير منتبه، يتعرض إلى خطر غير متوقع، وذلك لأن حوضها ضيق جداً كالوشاح، وهي محاطة من جميع جهاتها بضفاف رملية، فإذا هبت الرياح الجنوبية مدة من الزمن جرفت كمية من الرمال إلى داخلها، وهذه الرمال تغطي وجه الماء بحيث لا يستطيع الناظر إليها أن يميز بينه وبين اليابسة الأمر الذي كان سبباً في غرق كثير من الناس فيها وابتلاعها كل الجيوش» وقد اقتبست هذه الترجمة من كتاب السير همبري براون: «أرض جاسان وسفر الخروج» ذلك الكتاب المليء بالمعلومات. وقد اعتمدت عليه في نقل كثير من الأمور، وأن كنت اختلف وإياه اختلافاً كلياً في النتائج التي توصل إليها. كما اني اعتمدت على ما كتبه بروكش باشا في كتابه: «مصر تحت حكم الفراعنة» مع إني اخالفه كلية في النتيجة التي توصل إليها بالنسبة إلى تعيين موقع هوارس. وكما اتفقت مع المستر كوب وايت هاوس فيما يتعلق بموقع هوارس، كذلك اتفق مع بروكش فيما يتعلق بالمستنقع السربوني باعتباره الموقع الذي حلت فيه الكارثة التي لحقت جيش فرعون. والحقيقة القائلة أن أرض جاسان هي وادي توميلات، لا المنطقة المجاورة لصوعن كما تخيل ذلك بروكش باشا، يجعل موقع يم سوف في البحيرة السربونية تماماً، وهذا مطابق لما ورد في العهد القديم كما سنرى ذلك فيما بعد. ثم أن أوصاف هذا المستنقع تشبه تماماً أوصاف فرع قديم من النيل انقطعت عنه المياه، والفرع المتشعب من النيل في تلك المناطق هو

الفرع البلوزي. ولنتذكر أن هناك اسطورة قديمة خلدها ملتن في كتابه: «الفردوس الضائع» وهي أن جيشاً ابتلعه مستنقع سربونيا.

هناك هوة عميقة كبحيرة سربونيا
تقع بين دمياط وبين جبل كاسيس القديم،
حيث غرقت فيها جيوش برمتها.

168 ـ ولم تنسب مثل هذه الاسطورة إلى البحر الأحمر، أو إلى خليج السويس، أو إلى أي امتداد خيالي لهذا الخليج.

169 ـ و«يم سوف» هو التعبير العبري للمياه التي غرقت فيها جيوش فرعون. وترجمته الحرفية: «النهر القصبي» أو «البحر القصبي». ولما استقر بنو إسرائيل في فلسطين بعد مضي مدة طويلة على وقوع هذا الحادث وألفوا خليج العقبة أكثر من المكان الذي غرقت فيه جيوش فرعون، اعتبروا هذا الخليج المكان الذي حصل فيه الغرق المذكور. وجاء في سفر الملوك الأول أن سليمان انشأ عصيون جابر على «بحر سوف» أي خليج العقبة[1]. وهكذا صار خليج العقبة مشهداً لتلك الكارثة. وقد أضاف بعض الكتاب الدينيين الذين جاؤوا بعد عصر سليمان إلى هذه القصة ما يلي: «إن الله لم يهد بني إسرائيل في طريق أرض فلسطين، بل هداهم في طريق برية بحرسوف»[2] ومعنى هذا إن الإسرائيليين لم يتوجهوا إلى فلسطين مباشرة سالكين طريق أرض الفلسطينيين، ولكنهم سلكوا طريق خليج العقبة. ومن المحقق أنهم لم يسلكوا هذا الطريق. ولم يذكر الكتاب خليج السويس، وربما كان السبب في ذلك أنه لم يكن لهم علم بوجود هذا الخليج. أما البحر

(1) الملوك الأول. الإصحاح التاسع: 26.
(2) الخروج. الإصحاح الثالث عشر: 17، 18.

الأحمر فلا صلة له بهذه المسألة لأن الماء الذي نحن في صدده لم يكن أحمر ولم يكن بحراً.

170 ـ والآبار التي في خليج السويس والتي تسمى آبار موسى، لا صلة لها بموسى مطلقاً. وفي منتصف الطريق بين القدس وأريحا خان نقل إليه السامري الذي يضرب به المثل، الرجل الجريح. وفي أريحا نفسها معبد موسى وقبره. ولما ذهبت إلى هذا المكان وقلت للرجل الذي انبأني بهذه الأمور: إنها غير صحيحة لأن موسى دفن في الجانب الآخر من البحر الميت، في مكان بعيد، على جبل بنو، وأنه لا يعرف أحد قبره، أجابني على الفور بقوله: «نعم، هذا ما يعتقده الرجل العادي، بيد أن بدوياً عثر على جثته، وهي في حالة سليمة، فنقلها إلى هذا المكان ودفنها فيها، فلا تبرح هذا المكان وأنت تحمل فكرة مزيفة عن موقع قبر موسى».

171 ـ ويدل على ان بني إسرائيل إنما نصبوا خيامهم على ساحل البحر الأبيض المتوسط بعد خلاصهم من فرعون، نزول طيور السلوى في مخيمهم[1]. وقد أكد هذا المستر ويليرز ستيورات في صورة لا تقبل الجدل مطلقاً وذلك لأن طيور السلوى تحلق فوق البحر الأبيض المتوسط فإذا انهكها التعب هبطت على الشاطئ الجنوبي منه في صورة اسراب كثيرة لا تعد ولا تحصى. فلا يعقل مطلقاً أن تترك هذه الطيور الملاجئ المكسوة بالأشجار التي على ساحل البحر الأبيض المتوسط وتذهب إلى صحراء سيناء لتهبط في سواحل خليج السويس، في المنطقة الصحراوية الجرداء. وفضلاً عن هذا فإن الرحلة بطريق سواحل خليج السويس غير ممكنة لعدم وجود المياه

(1) الخروج. الإصحاح السادس عشر: 13.

هناك، وكون الأراضي في تلك المنطقة صحراوية. هذا إلى أنه كانت مع بني إسرائيل قطعان كثيرة من الغنم والبقر.

172 ـ وهبت ريح شرقية هيأت لموسى الفرصة لكي ينجو من فرعون[1]. وهذه الريح نفسها هي التي تساعد جيشاً يريد الهرب من مصر بطريق الضفة اليمنى للفرع البلوزي المتشعب من النيل، أو المستنقع السربوني. فلو كان الخروج من ناحية خليج السويس فإن الريح الشرقية تكون عديمة الفائدة بالنسبة إليهم، بينما تكون الريح الشمالية عاملاً مساعداً لهم. واتخطر جيداً انني في أواخر عام 1880 قمت بعملية مد الفرع السبنتي المتشعب من النيل عبر الجانب الشرقي من بحيرة البرلس وهي البحيرة الوسطى من الدلتا التي تشبه البحيرة الشرقية من حيث عمقها البالغ ثلاثة أقدام من المياه المالحة. ولما كنت على علم بأن الرياح الشرقية القوية التي تهب في شهر نيسان، من شأنها أن تجرف أمامها كل مياه البحيرة إلى النصف الغربي من حوضها، كلفت المستر مردوخ بأن يحضر عدداً كثيراً من العمال مع كمية من الأوتاد والأحطاب والحبال والآجر وغير ذلك من المواد اللازمة للعمل ويتهيأ لهذه الرياح عند هبوبها. ولما هبت الريح شديدة بدأنا بالعمل حتى تمكنا بوساطة السد، من ايصال المياه عبر البحيرة. ولما وصلت المياه العذبة إلى مدينة بلطيم دعا رجل الدين الذي كان هناك، سكان بلطيم فصلوا في الجامع صلاة خاصة يشكرون الله على وصول الماء إلى مدينتهم ثم اخذوا يطلبون البركة لنا نحن المسيحيين ويقرنون اسمينا باسم الخديوي. وهذا السد الذي افمناه عبر البحيرة هو من نوع السد الذي أقامه النبي موسى. واتخطر اني في عام

(1) الخروج. الإصحاح الرابع عشر: 21.

1885 عبرت بحيرة البرلس من مكان مواجه لمدينة بلطيم وكانت البحيرة جافة، نتيجة لهبوب الريح الشرقية، ولكنها كانت مع ذلك موحلة جداً وعميقة بحيث إني لم استطع العبور فيها بدون أن أخلع عني كل ملابسي واتخبط في الطين عدة ساعات، ومع إن المسافة التي قطعتها كانت أربعة أميال فقط إلا إني انفقت النهار كله تقريباً في هذا العبور. وفي اثناء عبوري هذا المكان كنت افكر في جيش فرعون وهو يطارد بني إسرائيل في مثل هذه الأرض الموحلة، حينما غطست مركباته في الوحل العميق، كما ورد ذلك في العهد القديم: «وخلع الرب بكر مركباتهم»[1].

173 ـ وقد أجاد السير همبري حين قال: ويدل النص القائل: «والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم» على أن المياه التي كانت على جانبيهم إنما كانت بمثابة جدران لهم تحميهم من هجوم العدو على الجناحين. وقد أيد شكسبير هذه الفكرة في «ريشارد الثاني» حيث قال:

«ان هذه الصخرة الثمينة القائمة في البحر الفضي

الذي يقوم جدار لها

أو كخندق منيع يحمي بيتاً»

174 ـ وسنبحث الآن عن موضوع آخر ثم نعود بعد ذلك فنصف قضية عبور الماء وهلاك جيش فرعون.

175 ـ ويقول السير همبري عن عمود النار في النهار وعمود الدخان في الليل ما يأتي: «لاحظ لينانت باشا أن العصر الحديث يزودنا بايضاح عن الطريقة المتبعة في إدارة تسيير القوافل عبر الصحارى. فالقافلة الكبيرة التي

---

(1) الخروج. الإصحاح الرابع عشر: 25.

تذهب كل عام من القاهرة إلى مكة يصحبها دليل يمتطي جملاً يسير أمام القافلة ليرشدها إلى الطريق، ويبقى هذا الدليل عاري الجسم إلى منطقة حزامه في الليل والنهار كيفما كانت حالة الطقس. ويسير معه رجال وهم يحملون مجموعة مشاعل كبيرة موقدة طول الليل يعلوها عمود من دخان بحيث تظهر هذه المجموعة كأنها عمود من نار. ففي النهار عندما يصعب على رجال القافلة مشاهدة الدليل الذي قد تحجبه عن اعينهم الأودية والكثبان في الطريق، تبقى المشاعل موقدة ويكون عمود الدخان دليلاً يرشد القافلة الضالة من بعيد، إلى وجهة السير، ويحدد لها مواعيد الوقوف وأماكنه. والدخان في هذه الحالة بمنزلة النار التي تكون دليلاً للقافلة في الليل».

176 ـ وكان هرب بني إسرائيل من وجه رعمسيس في وادي توميلات، بين أواخر مارت وأواخر نيسان. أما الطريق الذي سلكوه بقيادة موسى فكان الذي اختاره هو موسى نفسه وذلك بعد تفكير طويل في الأمر. وكان لدى موسى مجال كاف لتهيئة الوسائل الضرورية لهذا الخروج في الفترة الواقعة بين أوائل أيلول ونهاية نيسان؛ فهبوط مستوى النيل من جهة والأوبئة التي رافقته من جهة أخرى، دفعا الجماهير المختلطة من سكان غربي آسيا الذين كانوا ـ كما هو الحال اليوم ـ يسكنون منطقة صوعن، إلى أن يهاجروا إلى أرض جاسان حيث تتوفر فيها كميات كثيرة من المياه العذبة الصالحة للشرب ولارواء الأراضي معاً. وقد سار هؤلاء المهاجرون نحو الشرق في اتجاه وادي تومبلات[1] أولاً إلى سكوت، ومن ثم إلى أرض ايثام الواقعة على حافة الصحراء. وكانوا في أحسن سلاح أو

(1) الخروج. الإصحاح الثالث عشر: 20.

متجهزين[1]، على حد تعبير التوراة، كما كان الرجال منهم قادرين على الدفاع عن أنفسهم. وكانت ايثام هذه، في أقوى الاحتمالات، إحدى الحصون (الاختام) المصرية الواقعة على السور الذي في الحدود في شور[2]. وهذا السور هو الذي يحمي مصر من هجمات العرب. وتقع صحراى شور أو صحراء ايثام في الجانب الشرقي من هذا الخط الدفاعي. وبعد أن وصل بنو إسرائيل إلى ايثام رجعوا إلى مصر (الخروج. الإصحاح الرابع عشر: 2) فساروا عشرين ميلاً في الصحراء[3] الواقعة بين الحد الشرقي لأرض «جاسان» وأرض «صوعن»[4]، ثم خيموا أمام «فم الحيروث»[5] بين «مجدل» والفرع الپلوزي المتشعب من النيل، أمام «بعل صفون». ولا يمكن أن يكون هذا الموقع إلا خرائب «تل دفينو» المطلة على «بحر البقر»، أو الفرع الپلوزي القديم المتشعب من النيل. ومن المحقق إن هذا المكان المشهور والمحصن تحصيناً جيداً، هو الموقع المهم الذي كانت فيه آخر السدود الحوضية الواقعة على الفرع الپلوزي يومئذٍ والذي كانت فيه منارتان حاميتان (مجدلان)، كل واحدة منهما على أحد جانبي الجدول. وفي هذا المكان ينتهي النيل. وفيه أيضاً كان السد الذي يسيطر به على المجرى. ويلي هذا السد مستنقع «سربونيا». وكلمة «فم الحيروث» (براثرا) أو فم المستنقع أي بداية مستنقع سربونيا، تلائم هذا الموقع تماماً. وعندما يبدأ موسم الفيضان في شهر آب من

---

(1) الخروج. الإصحاح الثالث عشر: 18.

(2) التكوين. الإصحاح السادس عشر: 7، الإصحاح الخامس والعشرون: 18.

(3) الخروج. الإصحاح الخامس عشر: 22.

(4) العدد. الإصحاح الثالث والثلاثون: 8.

(5) الخروج. الإصحاح الرابع عشرة: 2.

كل سنة وتكثر فيه المياه ذات الطمى، يغلق الفرع البلوزي في هذا المكان وذلك لتحويل المياه إلى الأحواض لارواء الأراضي. وقد وضع موسى سداً في النهر في هذا المكان نفسه في شهر نيسان الأمر الذي أدى إلى اغمار الحوض المجاور للسد بالمياه وإغراق المحاصيل الزراعية التي كانت موجودة هناك. ولم يكن في استطاعة المصريين الذين كانوا قادمين من صوعن أن يزيلوا السد المحيط بالحوض المذكور لأنه يقطع عليهم طريق تقدمهم ومواصلاتهم. ولما توغل المصريون في منطقة الأهوار وساروا فيها مسافات غير قليلة، عمد موسى إلى إزالة السد الذي كان قد أقامه في نهاية النهر عند «فم الحيروث» وذلك ليحقق هلاك المصريين. والذي ساعده على ذلك وجود عدة تفرعات للنهر في هذه المنطقة، كما تدل على ذلك آثار النهر التي لا تزال موجودة إلى اليوم.

177 ـ ويعتبر رجوع بني إسرائيل إلى مصر تواً، ومقابلتهم المصريين وجهاً لوجه بعد هلاك جيش فرعون، أغرب حادثة في التاريخ كله. فبعد أن أقام بنو إسرائيل السد على فرع النهر، هبت ريح شديدة من الشرق فملأت الفضاء بالغبار وسترتهم عن أعين المصريين. وفي أثناء ذلك نقل موسى أعمدة النار والسحاب من مقدمة القافلة إلى مؤخرتها[1] الأمر الذي فصل فرعون عن حراسة لأنه ظن أن الخوف استولى على بني إسرائيل وأنهم وقعوا في حيرة من أمرهم. والواقع أنهم كانوا ينتظرون صدور الأمر إليهم بالزحف إلى الأمام. فلما صدر الأمر إليهم (الخروج. الإصحاح الرابع عشر: 15) عبروا النهر ثانية متجهين إلى الجنوب وكسروا السد الذي كانوا

(1) الخروج. الإصحاح الرابع عشر: 19.

كتابخانه تخصصي تاريخ اسلام وايران ١٣٧٤

قد أقاموه على النهر. وقد تعاون الكسر الأخير للسد، وتحول الريح الشرقية إلى غربية، على هلاك المصريين. فجرفت المياه الطاغية المنسابة في مستنقع «سربونيا» بعض جيوش فرعون، وغرق قسم آخر منهم في المستنقعات التي أغرتهم في شكلها الخارجي فظنوا أنها أراضي يابسة[1]. والنص القائل: إن الله «خلع بكر مركبات المصريين»[2] يدل دلالة مؤكدة على أن المصريين تخبطوا في أرض موحلة من نهر قديم، لا في أرض رملية صلبة من ساحل بحر. وهذا يطابق تماماً الوصف السابق الذي ذكره ديودورس الصقلي وذلك لأن وقوع الصحراء في الجنوب الشرقي للفرع البلوزي المتشعب من النيل، وهبوب الريح الشرقية الشديدة، كانا السبب في ان المياه العميقة لمستنقع سربونيا تغطت بالرمال فخيل للمصريين أن أرض المستنقع يابسة فساروا فيها، ولو دققنا في دراسة وصف غرق جيش فرعون كما جاء في سفر الخروج لوجدنا أن التعابير الواردة في هذا الوصف أكثر انطباقاً على حالة نهر جار منها على حالة بحر راكد. فتعبير: «رجع النهر إلى حاله الدائمة» أنسب بطبيعة الحال من تعبير: «رجع البحر إلى حاله الدائمة» (الخروج. الإصحاح الرابع عشر: 27). ثم إن النص القائل: «تراكمت المياه. انتصبت المجاري كرابية» (الخروج. الإصحاح الخامس عشر: 8) يشير بطبيعة الحال إلى نهر عليه سد لا إلى بحر منقسم.

وبعد أن دخلت تركيا الحرب بمدة قصيرة بعثت برسالة إلى القائد العام في القاهرة، اعلمته فيها بأنه يوجد في شرق قناة السويس

---

(1) الخروج. الإصحاح الرابع عشر: 28.

(2) الخروج. الإصحاح الرابع عشر: 25.

الحالية، بين القنطرة وبورسعيد، مثلث واسع من الأراضي الجافة التي يقع مستواها تحت سطح البحر وأنه يمكن أغمار هذه الأراضي بمياه البحر لحماية قناة السويس، بين القنطرة وبورسعيد، من الاتراك. وذكرت له في هذه الرسالة أيضاً أنه يمكن إغراء الأتراك بالدخول في هذا الحوض الواطئ ثم اطلاق مياه البحر عليهم واغراقهم كما فعل موسى بجيش فرعون. فما كان من القائد العام إلا أن بادر إلى اغمار هذه المنطقة بالمياه. ولو أنه تريث قليلاً حتى يدخل الأتراك في هذا الحوض لأمكنه أن يتوصل إلى ما توصل إليه موسى من اغراق جيش عدوه. ومن المحقق أنه يستحيل وقوع هذه الفاجعة الخطيرة في تاريخ مصر، كهلاك الجيش المصري برمته، دون أن تترك لها أثراً في بعض التقاليد، ولو أن المخلفات الأثرية ساكتة عنها. فإذا رجعنا إلى التقاليد المحلية نجد انها حددت محل الكارثة المذكورة فجعلته في مستنقع «سربونيا» الواقع في الجهة الشمالية الشرقية من حدود مصر لا في مكان آخر. ولكني سوف أعود إلى البحث في هذا الموضوع عندما انتهي من مناقشة مسألة عبور بني إسرائيل شبه جزيرة سيناء.

178 ـ وبعد أن عبر بنو إسرائيل الفرع البلوزي المتشعب من النيل ساروا[1] في محاذاته. فقطعوا في هذا الاتجاه مسافة 36 ميلاً في مدة ثلاثة أيام[2]. وكانت المياه في هذه الأراضي تزداد فساداً وملوحة كلما اقتربوا إليه من البحر، حتى إذا ما وصلوا إلى منطقة الطينة الواقعة على حافة البحر الأبيض المتوسط وجدوا المياه في «مارة»

(1) العدد، الإصحاح الثالث والثلاثون: 8.

(2) العدد. الإصحاح الخامس عشر: 22، 23.

مالحة وغير صالحة للشرب. وهذا هوالمقصود، في نظري من الفقرتين: 22، 23 الواردتين في الإصحاح 15 من سفر الخروج. والذي يعين هذا التفسير أنه يستحيل طبيعياً أن يقوم بسفرة فجائية تستغرق مدة ثلاثة أيام في شهر نيسان عدد كبير مؤلف من قطعان من البقر والنساء والأطفال والشيوخ الذين كانوا قد تعودوا على الحياة قرب المياه العذبة مدة سنين، دون أن تتوفر لديهم في سفرتهم هذه قطرة واحدة من المياه العذبة الصالحة للشرب. وكان مع بني إسرائيل «قطيع كبير». أما السبب في عدم توفر المياه الصالحة للشرب مدة ثلاثة أيام في هذه السفرة التي تبدأ من «برية شور» وتنتهي في «صحراء سين» فراجع إلى أنّ الآبار الواقعة شرق «شور» والتي تبعد عنها مسافة غير قليلة، كانت ولا تزال مالحة. لهذا لا يوجد مخرج لتفسير عبور قبيلة بكاملها منطقة خالية من مياه الشرب في شهر نيسان إلا إذا فرضنا أنهم سلكوا طريقاً محاذياً للفرع البلوزي المتشعب من النيل. ولا شك أن موسى سلك هذا الطريق. والواقع أن موسى ربما كان قد فكر، حين قام بكسر السد المنشأ على الفرع البلوزي المتشعب من النيل وحين أطلق المياه التي كانت مخزونة أمام ذلك السد، في أمرين: أحدهما اهلاك المصريين الذين تعقبوا بني إسرائيل. وثانيهما تجهيز بني إسرائيل العطاشى بالمياه الصالحة للشرب.

179 ـ وفي «مارة» استطاع موسى[1] أن يزود بني إسرائيل بالماء الصالح للشرب ذلك بأحد طريقين: اما أنه أقام سداً من أشجار الطرفاء والقصب والطين فحال بذلك دون اختلاط المياه المالحة

(1) العدد. الإصحاح الثالث والثلاثون: 8.

بمياه الجدول العذبة، أو أنه حول بعض المياه العذبة من الجدول إلى المنخفض الذي كان الإسرائيليون مخيمين على ضفافه. وقد وصف العهد القديم هذه العملية بقوله: «فأراه الرب شجرة فطرحها في الماء فصار الماء عذباً». ولم يرد لكلمتي «بئر» أو «منبع» ذكر فيما يختص بمنطقة «مارة». ووصف سفر يشوع (الإصحاح الرابع: 9) إنشاء معبر على الأردن بالأتربة وبعض الأحجار بقوله: «نصب اثني عشر حجراً في وسط الأردن».

وسار بنو إسرائيل من «مارة» أو «الطينة» إلى «ايليم» حيث كانت هناك اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة[1]. ولا شك أن «ايليم» هذه هي منطقة «قاطية» التي تبعد أشجارها وآبارها مسافة عشرة (أو اثني عشر) أميال عن «الطينة». ففي هذا المكان خيم بنو إسرائيل طلباً للراحة. ولما كانوا قد خرجوا من مصر متجهزين أو مسلحين، بيد رفيعة[2]، في حين أنهم دحروا الجيش المصري الذي تبعهم[3]، لم يكن هناك ما يقلق راحتهم.

180 ـ وكانت مسألة عدد من هاجر من مصر من بني إسرائيل غامضة غموضاً شديداً، سواء بالنسبة إلى الذين ألفوا النص الأصلي للتوراة في العبرية أو بالنسبة إلى المترجمين الذين جاؤوا بعدهم. وهذا الغموض ناشئ من استعمال كلمة (ألف) وهي لفظة مشتركة بين مدلولين: «العائلة» و «1000 العدد». غير أنه لا بد أن يكون المقصود منها في النص الأصلي وفي الشروح أيضاً، معنى «العائلة»

(1) الخروج. الإصحاح السادس عشر: 1.
(2) الخروك. الإصحاح الثالث عشر: 18.
(3) الخروج. الإصحاح الرابع عشر: 8.

لأنه كان من الممكن لستمائة عائلة أن تعيش في أرض جاسان، وأن تهاجر منها عبر صحراء سيناء[1]، في حين أنه لم يمكن ممكناً لستمائة ألف رجل محارب، هم وزوجاتهم وأولادهم وآباؤهم أن يعيشوا في أرض جاسان أو أن يسافروا عبر صحراء سيناء[2]. وقد وردت كلمة ألف بمعنى عائلة في المخطوطات البابلية التي ترجع إلى عصر موسى والتي تخص آسيا الغربية. ذكر ذلك السيد فليندرس بيتري.

181 ـ والمن أو سكر الطرفاء الذي وجده بنو إسرائيل بكثرة في برية سيناء، نادر جداً اليوم. لكني بعد أن قضيت بضعة أشهر في منطقة كارو في أفريقيا الجنوبية اتضح لي كل ما يتعلق بهذه القصة. وها أنا أنقل للقارئ من الكتاب الأزرق لأفريقيا الجنوبية (سي دي. 1165) الصادر في شهر تموز عام 1902 ما يلي من الصفحتين 42، 43:

182 ـ «تتراوح كمية المطر التي تسقط في منطقة برنس البيرت (ويطلق عليها، مع منطقة بيو فورت ويست، اسم كوف، وتلفظ عادة كوب) بين خمس وعشر بوصات سنوياً. والأشجار الموجودة في مقاطعة كارو الواقعة في هذه المنطقة من أحسن الأنواع، وهي جديرة بالعناية والإصلاح. وقد أجمع الفلاحون الذين اتصلت بهم هناك على أن هذه الأشجار المهمة والمفيدة آخذة في التناقص المستمر سنة بعد أخرى، في حين أن الأشجار والأعشاب غير المفيدة آخذة في الازدياد بصورة مستمرة سنة بعد أخرى أيضاً. فالمعز والأغنام

---

(1) العدد. الإصحاح الأول: 46.

(2) راجع الفقرة 207.

والحمير تلتهم دائماً الأشجار الجيدة وتحول دون نمو الأشجار الصغيرة من هذا النوع. والأشجار غير المفيدة تحل محل الأشجار المفيدة في أقسام كبيرة من هذه المنطقة، ويغالي بعض الفلاحين فيقول: أنه كان في امكان مقاطعة كارو قبل 25 سنة أن تزود بالمواد الغذائية عدداً من الاغنام ضعف العدد الذي تزوده اليوم. ويحتاج كل رأس واحد من الغنم في الوقت الحاضر، بناء على المعلومات التي حصلت عليها، إلى نحو ثمانية ايكرات من مساحة هذه المروج. ويقول الفلاحون كلهم: إن المسالك التي كانت تسير فيها الأغنام في هذه المنطقة قد تحولت إلى مجاري صغيرة في أيام الفيضان، الأمر الذي ساعد على سرعة جريان مياه الأمطار على سطح الأرض بتأثير عامل التعرية. وقد أدى هذا كله إلى حرمان الأراضي من امتصاص كميات كبيرة من المياه كما كان الحال في السابق. وقد سبب هذا جفاف تلك المروج وتحويل المجاري الرئيسة إلى سيول جارفة ذات قعر قابل لاستيعاب المياه وخال من العقبات. في حين أن أراضي هذه المنطقة كانت تتألف من مساحات واسعة مغطاة بالطمى والأشجار والغابات التي تختزن كميات كبيرة من الرطوبة خلال السنة.

183 ـ «وربما كانت صحارى سيناء وفلسطين في الازمنة القديمة مغطاة بالأشجار الغضة التي تمون آلافاً من الحيوانات بالمواد الغذائية اللازمة لها، وبهذه الوسيلة وصل عدد الأقوام البدو الرعاة الذين كانوا في هذه المنطقة في الكثرة إلى حد قد يخيل لنا اليوم أنه مبالغ فيه. وقد وصف انبياء بني إسرائيل القدامى هذا التغير التدريجي بثلاث عبارات: «وادي التيه» و «الأرض اليابسة» و«الصحراء». فما كان في أول الأمر «وادي التيه» انحط تدريجياً فصار أرضاً «يابسة».

وبعد مرور مئات من السنين كانت خلالها المعز والحمير والجمال تلتهم الأشجار، تحولت هذه الأرض اليابسة إلى صحراء واسعة. وهذا المصير يهدد مقاطعة كارو الواقعة في افريقيا الجنوبية. وكيف كانت الحال فإن العالم الحديث يسير بسرعة، والثورة التي كان يتوقف حدوثها في الأزمنة القديمة على مضي آلاف من السنين، اصبح من الممكن انجازها في عالمنا المزدحم اليوم، خلال مدة مائة سنة».

184 ـ وفي وسعي أن أضيف إلى ما تقدم أن الاتراك، تحت قيادة الالمان، وجدوا خلال الثمانية عشر شهراً الأخيرة في شبه جزيرة سيناء مياه كثيرة في مواقع كانت تعتبر خالية من الماء تقريباً. وهذه المياه لا تزال موجودة حتى الآن. وقد توصلوا إلى كشفها بوساطة جهود منظمة، كاختبار الأرض وحفرها وانشاء سدود لايجاد خزانات صغيرة فيها. فلعل موسى إنما سمي بهذا الاسم إما لأنهم انتشلوه من الماء[1] إلى اليابسة، أو لأنه هو نفسه، انتشل الماء من اليابسة.

185 ـ وفي أوائل شهر آب رجع بنو إسرائيل من آبار قاطية إلى بحر سوف (العدد، الإصحاح الثالث والثلاثون: 10) أو الفرع البلوزي المتشعب من النيل، وذلك لأن مياه الفيضان المتدفقة جرفت آنذاك المياه المالحة من الجدول وزودت جيوشهم بكميات كثيرة من المياه الصالحة للشرب. وفي شهر أيلول، في موقع قريب من مصب الفرع البلوزي المتشعب من النيل، تساقطت على معسكر بني إسرائيل طيور السلوى بكثرة. ويحتمل جداً أنهم مكثوا في هذاالمكان حتى

(1) الخروج. الإصحاح الثاني: 10.

حلول موسم الأمطار وذلك لأن هذه الأمطار تزود رمال الصحراء بالمياه التي تمكنهم من أجتياز صحراء سيناء ببطء. وكانت ذنائب الفرع البلوزي المتشعب من النيل تبدأ في حدود برية سين. واقدم مطر غزير في مصر السفلى، على ما أعلم، إنما يقع في اليوم الرابع من شهر تشرين الأول. وكان أول عرب واجههم بنو إسرائيل هم العماليق الذين كانوا يقطنون في القسم الواقع جنوب البحر الأبيض المتوسط، من برية شور إلى الاتجاه الشرقي. وبعد أن اخترق موسى أرض العماليق التقى بحميه كاهن مديان الذي كان قد جاء من خيام المديانيين، وكان قد استصحب معه زوجة موسى وابنيها. وكان المديانيون يقطنون المنطقة الواقعة جنوب أرض العماليق، وهي الأرض التي تمتد شرقاً من أدوم وخليج العقبة إلى أور الكلدانيين الواقعة على نهر الفرات.

186 ـ وإذا أخذنا بنظر الاعتبار الأمور المتقدمة التي تخص رحلة بني إسرائيل من مصر إلى حوريب حسبما وردت تفاصيلها في سفري الخروج والعدد، تجد أن هذه الرحلة كانت على الترتيب التالي:

1 ـ رجعوا من ايثام إلى مصر. وعسكروا على جانب النهر (الخروج. الإصحاح الرابع عشر: 2).

2 ـ في أواخر نيسان وأوائل مايس كان النيل في أوطأ مناسيبه. وكان في وسع رجل قدير كموسى أن يسيطر عليه.

3 ـ وغرق جيش فرعون في مستنقع سربونيا ففيه كانت الكارثة كما نصت على ذلك التقاليد. (الفرودس الضائع. الكتاب الثاني).

4 ـ ولما كانوا يسيرون في محاذاة الفرع البلوزي فقد تمكنوا، خلال مدة ثلاثة أيام، من اجتياز المنطقة الصحراوية

الخالية من الماء الواقعة شرق مصر مباشرة. وذلك لأن هذه المنطقة لا يمكن أن يجتازها بطريق آخر عدد كثير مؤلف من النساء والأطفال وقطعان البقر والغنم والشيوخ[1].

5 ـ وصارت مياه مارة حلوة بسبب السد الذي عمل من الأشجار والأغصان والذي سبق شرحه (الخروج. الإصحاح الخامس عشر: 25) ولا يمكن وجود تعليل آخر غيره.

6 ـ ولما بدأ موسم الفيضان في أوائل شهر آب رجع بنو إسرائيل إلى بحرسوف أو الفرع البلوزي المتشعب من النيل. (العدد. الإصحاح الثالث والثلاثون: 10).

7 ـ ولما وصلوا إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط في شهر أيلول أخذت طيور السلوى تتساقط على مخيمهم (الخروج. الإصحاح السادس عشر: 13) وهذه الطيور لا تزال حتى اليوم تتساقط في هذه الأشهر نفسها.

8 ـ وكان البدو الشماليون أو العماليق أول القبائل العربية التي واجهها بنو إسرائيل: (الخروج. الإصحاح السابع عشر: 8).

9 ـ ثم واجهوا المديانيين الذين كانوا يقطنون جنوب العماليق (الخروج. الإصحاح الثامن عشر: 2).

187 ـ واضطر بعض النقاد الذين يرون إن بني إسرائيل إنما سلكوا طريقهم عبر البحر الأحمر، ان يفرضوا: إن البحر الأحمر كان

---

(1) الخروج. الإصحاح الخامس عشر: 22، العدد. الإصحاح الثالث والثلاثون: 8.

يمتد شمالاً إلى الإسماعيلية، وأن بني إسرائيل لم يرجعوا إلى مصر قبل ان يستمروا في رحلتهم نهائياً، وأنه لا يوجد سبب يرغمهم على الرجوع إلى البحر الأحمر بعد أن مكثوا في أيليم، وأن يذهبوا إلى تخطئة التوراة حين ذكرت طير السلوى أولاً والعمالقة ثانياً والمديانيين ثالثاً، في حين أن ترتيب هذه الاسماء الثلاثة يجب أن يكون ـ حسب رأيهم ـ معكوساً. كل هذه الصعوبات والمستحيلات إنما نشأت بسبب خطئهم في ترجمة كلمتي: «يم سوف». والواقع أن هاتين الكلمتين تطلقان حتى اليوم على المناطق القصبية الواقعة على طول الأنهر ذات المياه الراكدة المتفرعة من النيل من كوندو كورو إلى البحر الأبيض المتوسط. وهذه المناطق القصبية تؤلف في بعض الأماكن السدود الرئيسة للنيل في منطقة السدود.

188 ـ إذا سأل سائل فقال: كيف تسنى لبني إسرائيل أن يتذكروا هذه الحوادث البعيدة مع محافظتهم على تسلسلها التاريخي الدقيق؟ فيمكنني أن أجيبه عن هذا بقولي: أنه لما كانت هذه الحوادث البعيدة رمزاً لخلاصهم من مصر ذلك الخلاص الذي هو في نظرهم سلسلة طويلة من المعجزات، كان لهذه الحوادث تأثير عظيم في نفوسهم بحيث أنها تركت فيهم أثراً لا يمكن أن تمحوه أية حادثة أخرى. فمن الممكن لبني إسرائيل أن ينسوا مئات من الحوادث التي وقعت لهم بعد ذلك، ولكنهم لا يستطيعون أن ينسوا حادثة الخلاص من مصر أبداً. وهذه القاعدة تنطبق على الشعوب كما تنطبق على الأفراد. فلقد كنت خارج دلهي حين وقعت الثورة الهندية الكبرى عام 1857، وكان عمري إذ ذاك دون الخامسة، وأن حوادث الأشهر الستة من مايس إلى اكتوبر لا تزال عالقة بذاكرتي حتى الآن، في حين إني لا اتذكر اليوم شيئاً من الحوادث التي طرأت عليَّ بعد تلك الأشهر الستة بعشرين سنة.

189 ـ لقد بحث كثير من النقاد في الآراء البدائية التي وردت في سفر التكوين ولكن بحوثهم كانت ممزوجة بقسوة وشدة. وذهب كثير منهم إلى أن الحوادث التي وردت في سفر الخروج ينقصها البرهان العلمي الدقيق. ولكني أرى اننا إذا أخذنا بالبرهان العلمي في هذه الأمور فيلزمنا أن نأخذ به أيضاً في نظائر هذه الأمور كالبحث عن نشوء الكون أولاً والبحث عن نشوء حياة كل شعب من الشعوب ثانياً. هذا مع العلم بأنه لا يمكن إخضاع هذين الأمرين إلى البحث العلمي الدقيق لأنهما يتصلان بخالق الكون. والواقع أننا إذا نظرنا إلى هذا الأمر بمقاييس المعرفة الراقية التي وضع أساسها القدماء، يستولي علينا العجب فنتساءل عن السر الذي حدا بخالق الكون إلى ابقاء هذه الأفكار القديمة الساذجة غير المستندة على أساس علمي في كتابه المقدس، فقد كان عليه أن يبدأ بالطريقة العلمية التي توصلنا إليها اليوم. غير أننا إذا ذهبنا في تفكيرنا هذا خطوة أخرى أبعد من ذلك فإنه يزول منا هذا العجب. فمن يدري بواقع الأمر؟ فلعل المقاييس العلمية المتوفرة لدينا اليوم بعيدة عن الحقائق الأزلية بعد الآراء لبدائية القدماء ـ كان سهول شنعار أو الأسرى اليهود الذين سكنوا على ضفاف النيل، عن العلم الذي توصلنا إليه ذلك العلم الذي أجاد المسيطر على العقول في كل زمان حين أشار إلى نقصه بقوله: «هناك أشياء أخرى كثيرة في السماء والأرض يا هوارسيو أكثر مما تحلم به فلسفتك».

الفصل الخامس

في وادي التيه وعبور الأردن

في وادي التيه وعبور الأردن

190 ـ كنت قد ذكرت في الفصل السابق أن جدول الپلوزي المتفرع من النيل، وهو ما يطلق عليه اليوم اسم «بحر البقر»، هو المكان الذي غرق في مياهه جيش فرعون قبل نحو 3,500 سنة. وكان موقع الكارثة في نقطة تقع حوالي منتصف المسافة بين الصالحية والقنطرة، في الجهة الشمالية الغربية من مدينة الإسماعيلية. لقد تتبعنا خطوات بني إسرائيل وعلى رأسهم موسى فذكرنا أنهم ذهبوا أولاً إلى «مارَّة» ومنها إلى «ايليم» ثم رجعوا إلى مصب «جدول الپلوزي» المتفرع من النيل، في مكان يقع حوالي عشرة أميال شمال قاطية. وقد مكثوا في هذا المكان إلى أن استعادوا نشاطهم[1]. وفي شهر أيلول، بينما كانوا على ساحل البحر، نزل على مخيمهم طير السلوى. وفي شهر تشرين الأول، بعد سقوط أول مطر، غادروا ـ على الأرجح ـ مصر نهائياً[2] وبدأوا رحلتهم في «برية سين» الواقعة جنوب البحر الأبيض المتوسط مباشرة. ويظهر من بعض فصول التوراة أن اسم «جوشن»[3] كان يطلق في تلك الأيام، لا على وادي

---

(1) العدد. الإصحاح الثالث والثلاثون: 10.

(2) الخروج. الإصحاح السادس عشر: 1، 13.

(3) يشوع. الإصحاح العاشر: 41، الإصحاح الحادي عشر: 16، الإصحاح الخامس عشر: 51.

توميلات الواقع غرب الإسماعيلية فحسب، بل على ما يشمل المنطقة الواقعة بين العريش وبئر السبع أيضاً. ويرى بعض المدققين أن بني إسرائيل انتشروا، خلال الأربعمائة عام التي مكثوا فيها في مصر، في الجهة الشرقية واحتلوا البرية الواقعة بين وادي توميلات وبئر السبع إلى حدود البحر الأبيض المتوسط. وقد اختلطوا في هذه البرية بالعمالقة الذين كانوا قد سكنوا هناك قبلهم، وأطلقوا فيما بينهم اسم «جوشن» على جميع البلاد التي تمتد من حدود مصر إلى «بئر السبع». فإذا كان الأمر كذلك، فيكون من الطبيعي أن يتجه بنو إسرائيل، وهم يغادرون مصر، نحو الشرق في طريق مستعمراتهم الواقعة جنوب البحر الأبيض المتوسط. هذا إلى أنهم اضطروا إلى أن يسيروا في محاذاة البحر المذكور ليؤمنوا[1] المراعي لقطعان البقر والغنم التي كانت معهم حتى وصلوا الوش (وهي على الأكثر العريش الحالية) الواقعة في مصب وادي مصر الذي يعتبر حداً للبلاد المصرية مدة آلاف من السنين. وقد اضطروا، بعد أن وصلوا إلى العريش، أن ينحرفوا عن الطريق المؤدي إلى أرض فلسطين التي تمتد إلى غزة، وذلك خوفاً من اصطدامهم بالفلسطينيين أو الكنعانيين.

191 ـ ثم اتجهوا من الوش (العريش الحالية) التي تبعد عن البحر الأبيض المتوسط، إلى الجنوب الشرقي في اتجاه رفيديم التي لا يمكن ان تكون سوى المقضبة[2] الحالية الواقعة على بعد نحو عشرين ميلاً من العريش. وفي هذا المكان احتلت قواتنا في عام 1917 النقطة العسكرية التركية التي كانت هناك وأسرت منها ألفي جندي. وقد وقف العمالقة

(1) العدد. الإصحاح الثالث والثلاثون: 13.

(2) العدد. الإصحاح الثالث والثلاثون: 14.

الذين هم من القبائل العربية الشمالية[1] التي تسكن جنوبي فلسطين، في هذا المكان في وجه بني إسرائيل ومنعوهم من الاستفادة من آبار تلك المنطقة. وهنا حاول موسى أن يجد لبني إسرائيل ما يحتاجون إليه من الماء فأوغل بهم في تلك المنطقة، «منطقة مسّه»[2]، موهماً أياهم أن فيها كميات من الماء، في حين أنه لم يكن فيها ماء. ثم قادهم بعد هذا إلى «قادش برنيع» فوجدوا فيها عيوناً وآباراً مليئة بالمياه. ويظهر من نصوص التوراة أن الوسيلة التي توصل بها موسى إلى كشف الماء لم تكن نتيجة ضربة على الصخرة التي لم يكن فيها ماء، وإنما كانت لمهارته الفائقة التي استطاع بها أن يقود بني إسرائيل إلى الجهات الأخرى التي تتوفر فيها كميات كثيرة من المياه. وفي عام 1902 حينما كنت في افريقيا الجنوبية سنحت لي الفرصة في إحدى المناسبات بمرافقة الخبير الفني المختص بالبحث عن المياه، وكان تابعاً لحكومة الكاب، فاراني في مدينة برنس البيرت عدداً من الآبار التي كانت نضبت مياهها عدة سنين، بحيث لم يتمكن المعنيون بالأمر من أن يعثروا على المياه التي فيها إلا بعد كشف الطبقة الداخلية التي تجري فيها المياه. والواقع أنه لا يمكن أن يهتدي إلى هذه الطبقة إلا الخبير ولهذا فاني لم اتمكن من أن اشاهد آثار هذه الطبقة إلا بعد أن أرشدني إليها هو. وكانت النتيجة أنهم حصلوا على كميات هائلة من المياه بحيث يمكن نصب مضخة صغيرة عليها.

192 ـ وتقع «قاش برنيع» التي هي «عين قديس» الحالية قرب القصيمة الواقعة على بعد نحو ثلاثين ميلاً جنوب شرقي المقضبة. وفي هذا المكان كانت نهاية الخط الحديدي العثماني الذي دمره الأتراك عام 1917 عندما

---

(1) الخروج. الإصحاح السابع عشر: 1 ـ 3.

(2) الخروج. الإصحاح السابع عشر: 1 ـ 6، (الفقرة 196).

تقدمنا لاحتلال رفح. ويختلف اغراء موسى لبني إسرائيل الذي حدث في «مسه»[1] عن لومهم إياه في «عربة»، وإنما وقع في «قاش مريبة» الكائنة في سين، شرقي عربة وعلى الحدود الجنوبية لأدوم. وقد تشجع بنو إسرائيل، بعد أن استراحوا مدة في قادش برنيع تحت «جبل الإله»، فهجموا على العمالقة في رفيديم وأخرجوهم من الواحة الصغيرة التي كانوا فيها. وفي هذا المكان وقف موسى[2] يتطلع إلى ساحة المعركة يسانده حور وهارون، ثم رفع يديه إلى السماء مبتهلاً إلى الله لأنه نصر بني إسرائيل على العمالقة. وكان بنو إسرائيل يرون دائماً أنهم بقضائهم على العمالقة إنما قاموا بخيانة تجاه حلفائهم، وذلك لأنه لم يكن العبرانيون وحدهم هم الذين ثاروا على الفراعنة بل كان معهم كل العرب الذين سكنوا مصر والذين كانوا يسمون (الجماهير الخليطة). ولا شك أن هذا الخليط من العرب الرحل، أو البدو كما نسميهم اليوم، هم الذين انتصروا على مصر مدة نحو سنة في منطقة الحدود الواقعة بين مصر وفلسطين، تلك المنطقة التي كانت مملوءة بخيامهم. وقد وجد مثل هذا الخليط من العرب مصر غارقة في بحر من النوم، قبل بضعة قرون، فاحتلوا الدلتا وانشأوا فيها دولة الهكسوس.

193 ـ وبعد أن انتصر بنو إسرائيل على العمالقة، استقروا في المنطقة المجاورة لقادش برنيع. وهذه المنطقة تبعد عن العريش، الواقعة على الحدود المصرية، مسيرة ثلاثة أيام. وكان موسى قد

---

(1) الخروج. الإصحاح السابع عشر: 7، التثنية. الإصحاح السادس: 16، الإصحاح التاسع: 22، الإصحاح الثالث والثلاثون: 8، العدد. الإصحاح العشرون: 12، 13، الإصحاح السابع والعشرون: 14، التثنية، الإصحاح الثاني والثلاثون: 51، (الفقرة 215).

(2) الخروج. الإصحاح السابع عشر: 11، 14.

قصد هذا المكان المشهور حين استأذن فرعون في سفرة تستغرق ثلاثة أيام إلى البرية لتقديم القرابين إلى إله العبرانيين.

194 ـ ويقول الأستاذ سايس عن قادش برنيع ما يلي: «تقع قادش برنيع بين سلسلة من الجبال. وهي تتألف من واحة خصبة تروى من منبع دائم ذي مياه صافية وبراقة. وكان هذا المنبع يسمى في أيام إبراهيم بعين مشفاة[1]، أو عين الحكمة. واسم قادش أو (معبد) يدل على قدسية ذلك المكان في نظر الساميين. وهذا المكان هو المنطقة الوحيدة التي تؤلف واحة واسعة خصبة في الصحراء. أما الجبال المحيطة بالمنبع فهي بمثابة حصن يحميه من غارات العدو. والمكان الخفي الذي تقع فيه قادش هذه كان يطلق عليه اسم «النقب» أو «المنطقة الجنوبية».

195 ـ إذا رجع الإنسان إلى الخارطة ورسم خطاً ممتداً من العريش وسار في اتجاه الجنوب حتى يصل إلى حسنة. ثم رسم خطاً آخر ممتداً من حسنة وسار في اتجاه الشرق حتى يصل إلى الحدود المصرية، معتبراً هذه الحدود من الشرق والبحر الأبيض المتوسط من الشمال كخطين آخرين يتممان المربع الذي يراد رسمه، فإنه يحصل في هذا المربع على أجود مرعى صحراوي في هذه المنطقة. وتقع «قادش برنيع» في هذا المربع. واليوم ترد في موسم الصيف إلى الآبار الموجودة في القسم الجنوبي من هذه المنطقة، آلاف من الأغنام ومئات من الإبل. وهكذا كانت الحال بالنسبة إلى الآبار الأخرى التي في هذه المنطقة، ويبلغ عددها عشرات، وبين كل بئر وأخرى منها مسافة تختلف من عشرة أمتار إلى خمسة عشر أو عشرين ميلاً. ومن جملة هذه الآبار عين القصيمة الحالية التي تتدفق منها

---

(1) التكوين. الإصحاح الرابع عشر: 7.

المياه على وجه الأرض، غير أن الاستفادة من مياه هذه البئر في الوقت الحاضر قليلة جداً. وهناك عين أخرى في أعالي الجبال تقع حوالي أربعة أميال جنوب شرقي القصيمة. وهي عين جديرات، وهذه العين جديرة بأن يشار إليها بصورة خاصة وذلك لأن المياه فيها تتدفق بصورة قوية بحيث أنها تؤلف عدة بحيرات قبل أن تصب في الوادي الذي تتبدد مياهها فيه. وهذا الوادي خصب جداً، تتخلله بعض المزارع وأحسن المراعي. هكذا كانت قادش برنيع قبل أن تحول الحرب دون دخول السياح إلى البلاد.

196 ـ إذا أطل الإنسان على معبد «قادش برنيع يرى على الجانبين الشرقي والجنوب الشرقي منه تلول حوريب وسيناء (الشمس والقمر) التي يبلغ ارتفاعها 3,250 قدماً فوق سطح البحر[1]. وكانت «قادش برنيع»[2] هذه الواقعة في ملتقى برية «فاران» و«سيناء» في وسط مراعي العمالقة[3]، معبداً لعرب الشمال كما كان قادش مريبة معبداً لعرب الجنوب. ويقع قادش مريبة في برية سين[4]، في الجهة الشرقية، أو الجهة الجنوبية الشرقية من أقصى الحد الشمالي لخليج العقبة الواقع وسط مراعي المديانيين في أقصى حدود أدوم. ولقادش مريبة حوريب وسيناء (الشمس والقمر) آخران يطلان عليها. ويطلق في سفر الخروج[5] غالباً على التل المطل على قادش برنيع اسم سيناء، وقلما

(1) العدد. الإصحاح الثالث عشر: 26.
(2) الخروج. الإصحاح التاسع عشر: 2.
(3) العدد. الإصحاح العاشر: 12.
(4) العدد. الإصحاح السابع والعشرون: 14.
(5) الخروج. الإصحاح التاسع عشر، والرابع والعشرون، والحادي والثلاثون، والرابع والثلاثون: 24، 31، 34.

يطلق عليه اسم حوريب. أما التل المطل على قادش مريبة فيطلق عليه دائماً اسم حوريب[1]. وفي قادش برنيع، كما ذكرنا سابقاً، كميات وافرة من الماء فلا يمكن بأية حالة من الأحوال أن يكون هو المكان الذي تذمر فيه بنو إسرائيل من جراء عدم وجود مياه كافية فيه. أما المياه في قادش مريبة فكانت قليلة غير كافية لهم. وسنعود إلى هذا الموضوع فيما بعد[2].

197 ـ وكما يتجول اليوم إعراب شمر في المنطقة الواقعة بين الموصل وجنوب بغداد وذلك لرعي اغنامهم وقطعاتهم، ومثلهم أعراب عنزة الذين يتجولون في المنطقة الواقعة بين كربلاء وجنوب حلب، كذلك كان بنو إسرائيل يتجولون بين القادشين وذلك لتأمين المراعي لاغنامهم خلال الاثني عشر شهراً من السنة. وتؤلف هذه الجولات فترة التيه التي انتهت بعزمم عزماً جدياً على السفر إلى المنطقة الواقعة شرقي «ادوم» ليهاجموا فلسطين من جهة الشرق.

198 ـ لقد نزل الوحي على موسى في منطقة التلول المطلة على قادش برنيع وقادش مريبة. ولا شك أن التقاليد والمدونات التي تتصل بأسرة

---

(1) الخروج. الإصحاح الثالث: 1، التثنية. الإصحاح الأول: 1، 2، الملوك، الإصحاح التاسع عشر: 8.

(2) وكلما أمعنت في دراسة اتجاه رحلة موسى بعد خروجه من مصر، ظهر لي جلياً أن التل المطل على قادش برنيع كان يسمى سيناء، وكان وقفاً للقمر وان التل المطل على قادش مريبة كل يسمى حوريب، وكان وقفاً للشمس. وعلى هذا فإن أهم حور أو حوريب إنما يطلق على التلول الواقعة في برية سين في الجهة الشرقية لعربة واسم سين أو سيناء، إنما يطلق على التلول الواقعة في برية فاران في الجهة الغربية. والسبب الذي دعا إلى الجمع بين مسه ومريبة في سفر الخروج (الإصحاح السابع عشر) كما اوضحت ذلك في الفقرة 215 من هذا الفصل، هو السبب نفسه الذي دعا إلى الجمع بين سيناء وحوريب، حسب ما يظهر لي. فالوحي نزل على موسى في كلا المكانين.

يوسف تدل على تفوق قدسية المعبد الجنوبي في نظرهم، كما أن التقاليد والمدونات الخاصة بأسرة يهوذا تدل على أن هذه الأسرة كانت تقدس المعبد الشمالي الواقع داخل حدود منطقتهم. فشريعة موسى إذن نزلت، بدون شك، في المكانين. وتقع قادش برنيع غرب عربة التي هي واد منخفض منبسط يقع بين الحد الجنوبي للبحر الميت وخليج العقبة. أما قادش مريبة فيقع شرق قادش برنيع. وما قيل من أن الله وعد[1] موسى، لما ظهر له بلهيب نار[2] من وسط عليقة، أن بني إسرائيل سيعبدون الإله في معبد قادش مريبة ـ هذا القول لا يمكن أن يستنتج منه أنهم لم يعبدوا الله في معبد قادش برنيع أيضاً.

199 ـ فسلسلة جبال سيناء الحالية الواقعة في جنوبي شبه جزيرة سيناء لا يمكن بأية حالة من الأحوال أن تكون ذات صلة بالجبل الذي نزل فيه الوحي على موسى. وذلك لأن هذه السلسلة تقع وسط صحارى قاحلة. وقد أشار الأستاذ المحترم سايس إلى هذه السلسلة بقوله: «منذ القرن الثالث أو الرابع للميلاد شاعت فكرة أن شبه جزيرة سيناء كانت المسرح الذي تاه فيه بنو إسرائيل في الصحراء. وهذه الفكرة ظهرت بين جماعات النساك الذين لجأوا إلى ذلك المكان المنعزل تخلصاً من الاضطهاد من جهة، ورغبة في الابتعاد عن متاعب الحياة الدنيوية للمدن المصرية من جهة أخرى. وقد اقترن اسم سيناء نفسها بسعير وأدوم في مقطوعتين من الشعر العبري القديم: ـ

«جاء الرب من سيناء

وأشرق لهم من سعير

---

(1) الخروج. الإصحاح الثالث: 12.

(2) الخروج. الإصحاح الثامن عشر: 5، 12، 27.

وتلألأ من جبل فاران
وأني من ربوات القدس
وعن يمينه نار شريعة لهم»[1]

«يا رب بخروجك من سعير
بصعودك من صحراء أدوم
الأرض ارتعدت، السموات إيضاً قطرت
كذلك السحب قطرت ماء
تزلزلت الجبال من وجه الرب
وسيناء هذا من وجه الرب إله إسرائيل»[2]

200 ـ «هذا إلى أن هناك سبباً تاريخياً يحول دون الرأي القائل بأن الوحي نزل على موسى في القسم الغربي من شبه جزيرة سيناء وأن في هذا القسم تاه بنو إسرائيل، وذلك لأن هذا القسم من شبه الجزيرة كان في عهد الخروج مقاطعة مصرية، فيها جنود مصريون لحماية الموظفين والعمال الذين كانوا يشتغلون هناك في مناجم النحاس والملخيت. وقد ورد في ورقة البردي القيمة المعروفة باسم (Harris Papyrus) قصة الهدايا الثمينة التي كان يرسلها فرعون إلى معبد الآلهة (هاثور). فذهاب بني إسرائيل إلى ذلك المكان لا يعني رجوعهم إلى مصر نفسها، بل رجوعهم إلى أرض مصرية أكثر تحصيناً من الدلتا وأشد عداء للقبائل الآسيوية المتجولة من أهل الدلتا أنفسهم».

201 ـ وكان موسى يرعى غنم يثرون[3]، كاهن مديان، على جبل

---

(1) التثنية. الإصحاح الثالث والثلاثون: 2.

(2) القضاة: الإصحاح الخامس: 4.

(3) الخروج. الإصحاح الثالث: 1 وكان المديانيون يسكنون في جنوب وشرق أدوم.

حوريب المطل على قادش مريبة. وفي هذا المكان ظهر له لهيب نار في وسط العليقة. ولما خيم بنو إسرائيل حول قادش برنيع، قام يثرون، ومعه زوجة موسى وولداها، برحلة التقى فيها بصهره[1]. وقد سمع موسى من حميه نصائح ثمينة وصليا معاً في المعبد. ثم رجع يثرون إلى مقره في قادش مريبة، ومن المحقق أن موسى كان يلتقي بحميه في ذلك المكان من حين إلى آخر في السنين التي اعقبت تلك الفترة.

202 ـ وقد انزلت الوصايا العشر والشرائع الأولى على موسى وهو في التلول المرتفعة المحيطة بقادش برنيع[2]. وهذه التلول هي أول عقبة مرتفعة تقف في وجه السحب التي ترافق العواصف الشتائية الآتية من الغرب. ومن المحقق أن هذه التلول كانت مسرحاً للرياح القاسية المصحوبة بالرعد التي تهب هناك من حين إلى آخر. وفي مثل هذه الحالات كان موسى[3] يهوى الوقوف على جبل الإله المطل على المعبد. وكانت تعتريه حالة غيبوبة، وهو واقف على قمة التل، وسط تلك الرياح العاصفة والبروق والمطر، وكان يترقب، كايليا، ذلك الصوت المنخفض الخفيف المرافق للهدوء الذي يعقب تلك العواصف. ولا بد أن يكون تأثير العاصفة الشديدة التي اصطدمت بالتلول المواجهة لها، شديداً ومريعاً في نفوس بني إسرائيل الذين عاشوا مدة أجيال طويلة في سهول مصر المنبسطة، وخاصة إذا علمنا أنهم كانوا يتطلعون في شيء من التهيج والثوران، إلى الاتصال بآله بني إسرائيل لأول مرة. واتخطر جيداً الشعور الذي اصابني عند مواجهة أول عاصفة في الترنسفال في خريف عام 1902 خلال حرب البوير. لقد

---

(1) الخروج. الإصحاح الثالث والثلاثون: 5.

(2) الخروج. الإصحاح الرابع عشر: 1 ـ 3.

(3) الخروج. الإصحاح التاسع عشر: 19، 20، الملوك الأول. الإصحاح الرابع عشر: 11، 12.

سافرت، بعد أن قضيت عشرين سنة كاملة في مصر، من رستمبرغ إلى كلركسدورب ليلاً تجنباً لخطر السفر في النهار في المنطقة التي كنت قد رأيت فيها في سفرة سابقة جماعة من البويريين الذين صوبوا بنادقهم نحوي دون أن يطلقوا منها عياراً نارياً. فقد وجدت نفسي في هذه السفرة فجأة وسط ظلام دامس كظلام مصر، تخترقه سحب كثيفة مسرعة نحو ميكالسبرغ، وكان البرد والمطر يتساقطان في صورة تتفق تماماً وحالة الجو في المنطقة الاستوائية. وكان البرق والرعد في حالة لم يسبق أن شاهدت مثلها قط. وكان الطريق الذي قطعته، ويبلغ طوله خمسة أميال، كقطعة من الذهب الصقيل المليء بانعكاسات غير متقطعة من البروق التي تخترق مياه الأمطار المنصبة على هذه البروق. وأتصور إني كنت مأخوذاً بذلك المنظر المريع مرتين حينما كانت العواصف تردد صداها بين مكالسبرغ وويتواتربرغ. وكان بيني وبين القلاع الصغيرة الموجودة هناك مسافة ميل واحد، ولكني لم اتمكن من الذهاب إليها، وذلك لأنه كانت لدى رجال الحرس أوامر شديدة تقضي عليهم بأن يطلقوا الرصاص على كل من يمر بتلك المنطقة في الليل، ابتداء من غروب الشمس إلى حين شروقها. وفي النهاية كان علي أن اتسلق القلعة رافعاً يدي إلى السماء سائلاً الله أن يهدي رجال الحرس ألا يطلقوا علي الرصاص. ولما وصلت إلى قمة التل رحب بي الملازم كينغ (أحد رجال الجيش، وكان قد اصيب بأربع طلقات في جسده) وقدم إلى قليلاً من المشروبات الروحية وأرسلني إلى إحدى عربات القطار البويرية، وكان السرير في القطار مريحاً جداً.

203 ـ وبعد مرور عدة سنين نزح بنو إسرائيل فجأة إلى المنطقة المحيطة بقادش برنيع، وكانت معهم قطعاتهم ومواشيهم الكثيرة العدد، فأتوا على جميع المراعي التي كانت متوفرة بكثرة في تلك المنطقة. وقد اضطروا بعد

هذا إلى ترك هذه المنطقة والهجرة إلى المراعي الموجودة في المنطقة المحيطة بقادش مريبة على الجانب الآخر من عربة. وكان في قادش مريبة جبل ثان للإله، سكن فيه موسى وكلم فيه الله، وكان لديه هناك من الوقت وفراغ البال ما ساعده على تدوين شريعة بني إسرائيل. ولما حل موسم الخريف وجد بنو إسرائيل أنفسهم في قادش برنيع. وفي الخريف التالي، وهو الموسم الذي يظهر فيه طائر السلوى على ساحل البحر الأبيض المتوسط[1]، ألح بنو إسرائيل على موسى أن يذهب بهم مرة أخرى إلى سواحل البحر التي تبعد عن قادش برنيع مسيرة ثلاثة أيام وذلك لصيد هذا الطائر الذي سبق لهم أن اصطادوه عندما كانوا على ساحل البحر الأبيض المتوسط عند مصب «الفرع البلوزي» المتشعب من النيل. ولما كان موسى يعرف جيداً الخطر الذي قد ينجم عن هذه الرحلة، وذلك لأنه كان لدى المصريين من الوقت ما يساعدهم على إعادة الكرة على بني إسرائيل والسيطرة على طول الطريق المؤدي إلى فلسطين، قال لبني إسرائيل في شيء من الصرامة الممزوجة باللطف: «إنكم قد بكيتم في أذني الرب قائلين من يطعمنا لحماً. أنه كان لنا خير في مصر. فيعطيكم الرب لحماً فتأكلون. تأكلون لا يوماً واحداً ولا يومين ولا خمسة أيام ولا عشرة أيام ولا عشرين يوماً. بل شهراً من الزمان حتى يخرج من مناخركم ويصير لكم كراهة». وكيف كان فإن بني إسرائيل تحرقوا شوقاً إلى هذه الرحلة وهددوا موسى بأن يرموه بالحجارة إذا حال بينهم وبين ما يريدون، لهذا اضطر إلى تلبية طلبهم فسار بهم إلى ساحل البحر. ولما ذهبوا إلى ساحل البحر انهالوا على صيد طائر السلوى دون أن يعيروا أهمية لخيامهم التي شبت فيها نار عظيمة التهمت

(1) العدد. الإصحاح العاشر: 12، 33، الإصحاح الحادي عشر: 4، 19، 31.

عدداً كثيراً منها فسمي المخيم لذلك تبعيرة أو «الحريق»[1]. ولما كان الوقود الجاف نادراً في هذه المنطقة أخذوا يأكلون لحم طائر السلوى بدون طبخ وكانوا يلتهمون منه كميات كثيرة. وقد أدى هذا إلى انتشار وباء مهلك بينهم ذهب ضحيته كثير منهم، فدعى مكان تلك الكارثة «قبروت هتأوه»[2] أي «قبور الشرهين» لهذا رجعوا مسرعين إلى قادش برنيع فرحين جداً لأنهم لم يصادفوا في طريقهم الجيوش المصرية أو قطاع الطرق، وذلك لأن المنطقة التي ذهبوا إليها تقع في الطريق العام بين مصر وفلسطين وهو الطريق الذي كان يسلكه الفلسطينيون.

204 ـ وقد ورد في سفر التثنية ذكر «الاغراء في مسه» و«الحريق في تبعيرة» و«قبور الشرهين». وهذه الأمور الثلاثة وقعت جلها في جوار قادش برنيع.

205 ـ وكان تعيين موسى سبعين رجلاً من الشيوخ ليكونوا كوسطاء بينه وبين بني إسرائيل، خير فرصة يظهر فيها أجمل ما يتصف به من المزايا، ولما رأى يشوع أن لاثنين من هؤلاء الوسطاء قابلية لاستفزاز الشعب وإثارته سأل موسى أن يردعهما. فقال له موسى: «هل تغار أنت لي. ياليت كل شعب الرب كانوا انبياء إذا جعل الرب روحه عليهم»[3].

206 ـ ورجع بنو إسرائيل إلى قادش مريبة مرة ثانية، ثم تركوها وارتحلوا إلى قادش برنيع، وقد اعيتهم هذه الرحلة كثيراً[4]. ولما كانت الأمطار في تلك السنة قليلة صارت الحياة في الصحراء شاقة

---

(1) العدد. الإصحاح الحادي عشر: 1.

(2) العدد. الإصحاح الحادي عشر: 34.

(3) العدد. الإصحاح الحادي عشر: 29.

(4) التثنية: الإصحاح الأول: 19، 22، العدد. الإصحاح الثالث عشر: 3.

جداً، لهذا قرر موسى أن ينتهز فرصة هذا الجدب فيحرض بني إسرائيل على احتلال فلسطين، فأرسل إليها جواسيس ليستطلعوا حالة البلاد. ولما كان دخول هؤلاء الجواسيس إلى فلسطين مباشرة يثير شكوك الكنعانيين[1] اضطر هؤلاء الجواسيس إلى أن يسلكوا طريق برية سين والحدود الشرقية لمنطقة أدوم، واستمروا في رحلتهم هذه شمالاً حتى وصلوا إلى الأراضي اللبنانية. ومن ثم رجعوا إلى قادش برنيع. ولا شك أنهم كانوا على هيئة تجار عرب متجولين. وقد جلبوا معهم عناقيد من العنب من جوار حبرون. واستغرقت سفرتهم هذه أربعين يوماً[2]. ولما رجعوا حاول عشرة منهم أن يثنوا عزيمة بني إسرائيل ويصرفوهم عن أحتلال البلاد وقد أثرت دعايتهم في الشعب تأثيراً شديداً حتى أن كالب ويشوع لم يستطيعا أن يقفا في وجه هذا التثبيط ويحملا الشعب على مهاجمة البلاد. فرأى موسى[3] أن ذلك الجيل الذي نشأ تحت نير العبودية في مصر لن يتمكن من الدخول إلى أرض كنعان سوى كالب ويشوع. أما ما عداهما من ذلك الجيل فسيتيهون في الصحراء حتى يفنوا ويحل محلهم جيل آخر نشأ في الصحراء وتعود على شظف العيش والمشاق[4]. غير أن الشعب اغتاظ لهذا القرار فقام بمحاولة فاشلة وهاجم بلاد الكنعانيين من الجنوب ولم يكن مع هؤلاء المهاجمين قوادهم فكانت النتيجة أنهم ردوا على اعقابهم وخسروا خسائر فادحة فلم يكن أمامهم سوى المصير المحتم وهو الرجوع إلى الصحراء.

---

(1) العدد. الإصحاح الثالث عشر: 21.

(2) العدد. الإصحاح الثالث عشر: 25.

(3) العدد. الإصحاح الرابع عشر: 29، 30.

(4) العدد. الإصحاح الرابع عشر: 44.

207 ـ لقد بحثنا في الفصل الرابع من هذا الكتاب عن المنّ (راجع الفقرات: من 180 إلى 184)[1] كما بحثنا عن التغير التدريجي الذي طرأ على البلاد حيث كانت في الأصل «وادي تيه» ثم تحولت إلى صحراء، وذكرنا أيضاً الاختلاف حول عدد بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر.

وذكر لي الأستاذ المحترم سايس إن الإصحاح الرابع عشر (7) من سفر الخروج يدل على قلة عدد بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر وذلك لأنه ورد فيه ان ستمائة مركبة كانت كافية لحملهم وارجاعهم إلى مصر. ولكن رغماً عن هذا فهناك من يعتقد أن عددهم كان يزيد على ذلك كثيراً بدليل ما ورد في سفر الخروج أيضاً من أن فرعون أخذ معه كل مركبات مصر وذلك ليحمل عليها بني إسرائيل الذين فروا من البلاد ويرجعهم إليها. وكيف كان فقد ملّ بنو إسرائيل جداً من أكل المن قبل ان ينتهي العام الأول للخروج، ولا شك أنهم إنما كانوا يتناولونه عند عدم وجود ما يقتاتون به غيره[2]، وذلك لأنه كانت لديهم، كسائر البدو في الصحراء، مواد أخرى كثيرة للعيش. فكانوا يقايضون بمنتوجات أغنامهم ومواشيهم حنطة مصر وأدوم وموآب، وكانوا يستطيعون أن ينقلوا البضائع التجارية لقاء عوض عنها. هذا إلى أنهم كانوا يستفيدون من تربية الحيوانات ومن المعاملات التجارية الأخرى. فإذا كان المقصود بكلمة الخابري التي ورد ذكرها في الألواح التي عثر عليها في تل العمارنة هم العبرانيون الذين تركوا أرض جاسان المصرية وسافروا إلى فلسطين فمن المحتمل جداً أنهم كانوا خلال مدة الأربعين سنة التي تاهوا فيها في الصحراء يؤجرون أنفسهم للقبائل المتحاربة فيشتركون معها في الحروب نظير عوض يدفع لهم عن

---

(1) العدد. الإصحاح الحادي عشر: 3، الإصحاح الحادي والعشرون: 5.

(2) العدد. الإصحاح الحادي عشر: 6.

ذلك. ومن المحتمل أنهم تعلموا بهذه الطريقة الفنون الحربية التي أفادتهم فائدة عظيمة فيما بعد.

208 ـ وقد سنت شريعة موسى على غرار شريعة حمورابي التي كانت، على ما يظهر، القانون الشرعي في آسيا الغربية. وقد التقيت في زيارتي الأولى لبابل بالدكتور كولدوي الذي قام بحفريات عديدة في هذه المنطقة استغرقت عدة سنين ولكنه لم يعثر على شيء مهم هناك، فأخبرني أن أم. دي مورغان قام خلال فترة قصيرة بحفريات في مدينة سوزه، العاصمة القديمة لبلاد فارس، وأنه عثر على المسلة التي كتبت عليها شرائع أعظم ملوك بابل. وهناك احتمال قوي أن كورش نقل هذه المسلة من بابل، عند احتلاله لها، إلى مدينة سوزة. وهذه المسلة أعظم أثر عثر عليه في الشرق حتى الآن. وكانت شرائع حمورابي بالغة حد الكمال. وكان موسى على غاية من الحكمة لأنه لم يحدث فيها تغييراً جوهرياً إلا بمقدار ما تدعو إليه الضرورة. وتعد بعض هذه التغييرات اسمى ما وصل إليه التشريع حتى بالنسبة إلى التوراة نفسها، وها أنا اورد هنا فقرة واحدة على سبيل المثال[1]:

إذا حصدت حصيدك في حقلك ونسيت حزمة في الحقل فلا ترجع لتأخذها. للغريب واليتيم تكون لكي يباركك الرب إلهك في كل عمل يديك. وإذا خبطت زيتونك فلا تراجع الأغصان وراءك. للغريب واليتيم والأرملة يكون. وإذا قطفت كرمك فلا تعلله وراءك. للغريب واليتيم والأرملة يكون. واذكر إنك كنت عبداً في أرض مصر. لذلك أنا أوصيك أن تعمل هذا الأمر.

209 ـ وكانت خيمة الاجتماع، أو المظلة، بسيطة كسائر خيم

(1) التثنية. الإصحاح الرابع والعشرون: 16، 22.

البدو[1]، وكان موسى يأخذها وينصبها خارج المحلة. وكان يشوع من قبيلة افرايم[2] هو الشخص الوحيد الذي يحضر في هذا المعبد البدائي. وكانت التقاليد القديمة لا تجوز بناء المذبح إلا من مادتي التراب أو الحجر غير المنحوت. وكان استعمال أية آلة اثناء البناء عملاً مدنساً للمعبد[3]. وكانت هذه الخيمة، هي وجميع ما يتصل بها، تنقل من مكان إلى آخر بوساطة أربع مركبات. وكانت تضرب خارج المحلة، وذلك لأنه كان من الضروري وجود نار داخل المحلة في جميع الأوقات. وهذه النار يخمد لهبها في النهار لينبعث منها الدخان، ويظهر لهبها في الليل لينبعث منها الضوء[4] (وهذه الطريقة، كما أوضحنا ذلك في الفصل الرابع[5] من هذا الكتاب، هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها قيادة القبائل المنتشرة في الصحراء) ولهذا كان من الخطر جداً نصب هذه الخيمة قرب الخيام الأخرى في داخل المحلة. وفي خلال فترة التيه التي حدثت فيما بعد، عندما حل هارون وابناه[6]: ناداب وأبيهو محل يشوع، تقدم أبنا هارون بمحجرتهما اللتين كان فيهما نار وبخور وذلك للدلالة على توليهما منصب يشوع. ولكن هذه النار كانت في وضع غير صحيح، أو أنهما لم يحسنا استعمالها بسبب انهما كانا ثملين في ذلك الوقت وذلك لأن الأمر الوارد في سفر اللاويين المتضمن منع هارون وأولاده من

---

(1) الخروج. الإصحاح الثالث والثلاثون 7، 11.

(2) الخروج. الإصحاح العشرون: 24، 25.

(3) العدد. الإصحاح الرابع: 21، 33، الإصحاح السابع: 1 ـ 8.

(4) الخروج. الإصحاح الثالث والثلاثون: 7.

(5) الفقرة 175.

(6) اللاويين. الإصحاح العاشر: 1، 2.

تناول المسكر الكثير عند دخولهم خيمة الاجتماع[1] ـ هذا الأمر جاء عقيب هذه الحادثة مباشرة. وكانت النتيجة لهذا أن احترق ناداب وابيهو وماتا في هذه الحادثة. ولما كانت الخيمة بسيطة، وكانت محتوياتها قليلة، فمن المظنون أنها احترقت معهما أيضاً، وقد نصبت في مكان الخيمة المحترقة خيمة أخرى يمكن نقلها بسهولة. أما الخيمة التي صنعها بصلئيل واهولياب (الخروج. الإصحاح الحادي والثلاثون: 1، 6) فلم يكن من الممكن نقلها من مكان إلى آخر[2] إلا بالقطار الذي انشأه الجنرال اللبني. وكانت هذه الخيمة، في أقوى الاحتمالات، ثابتة في المركز الرئيس لبني إسرائيل في قادش برنيع، وكانت قبيلة يهوذا تقوم على حراستها عندما اتجهت القبائل الأخرى إلى المنطقة الواقعة شرق اريحا. وبعد أن دخلت القبائل التي كانت تحت قيادة افرايم، فلسطين من الجهة الشرقية واحتلت القسم الشمالي منها، ودخلت القبائل التي يقودها يهوذا من الجهة الجنوبية من البلاد واحتلتها، عندئذٍ نقلت تلك الخيمة نهائياً من قادش برنيع إلى شيلون الواقعة في وسط فلسطين.

210 ـ لا يمكن مقارنة عصا هارون التي ازهرت[3] زهراً إلا ببذرة الساحر الهندي التي تحمل ورقاً وثمراً. وهذا النوع من السحر يرجع في الغالب إلى عهد عريق في القدم، وربما كان مرده إلى مصر القديمة حيث اتخذه الكهنة هناك إداة للتأثير في الناس. ولعل هذا كان من صنع هارون، لا موسى، بدليل أن هارون لم يتردد في مناسبة أخرى، في

---

(1) اللاويين. الإصحاح العاشر: 8.

(2) الخروج. الإصحاح السادس والثلاثون: 9، 34، الإصحاح الثامن والثلاثون: 9 ـ 20.

(3) العدد. الإصحاح السابع عشر: 8.

صنع العجل الذهبي الذي يعبده بنو إسرائيل وذلك رغبة منه الاحتفاظ بنفوذه وتفوقه عليهم[1]، وكان عذر هارون عن هذا أنه أراد أن يفتتن بنو إسرائيل به. وبهذا يظهر أن التوراة لا تعير أهمية للاشخاص مهما كانت منزلتهم عالية. وقد يبدو غريباً أن تترك أمثال هذه الأعمال التي تستند على خفة اليد، كقلب العصا ثعباناً وجعلها تزهر مرة أخرى[2]، مثل هذا الانطباع في نفوس الشعوب البدائية. لكن بلاط فراعنة الأسرة التاسعة عشرة كان على جانب عظيم من الحضارة والتقدم بالنسبة إلى ذلك العصر، ومع هذا فقد كان سحرة البلاط مستعدين دائماً لتأكيد صحة ما يقوله الكهنة.

211 ـ وهذه النقوش والكتابات التي دونت فيها معتقدات العالم القديم والتي ينادي كل سطر منها بعراقته وتوغله في القدم هي إحدى الأدلة الدالة على أن الوثائق المبحوث عنها هنا قديمة كما يدعى ذلك. ومع هذا فالذين يصرون ـ عند عدم وجود هذه النقوش والكتابات ـ على أن هذه الوثائق المبحوث عنها هنا حديثة العهد نسبياً، هؤلاء هم أول من يصر ـ عند وجود هذه النقوش والكتابات ـ على أن هذه الوثائق غير حديثة العهد بحيث تصلح أن تكون مادة للتوراة. لقد كان كتاب هذه الوثائق ابناء ذلك العصر الذي عاشوا فيه، وكانت معتقداتهم السلم الذي توصلنا به إلى ثقافتنا اليوم. فالذين يزدرون بكل معرفة غير معرفتهم التي كثيراً ما تكون غير صحيحة، يصدق عليهم ما قيل:

إن الذي يشعر بازدراء أي شيء حي
وله قوى لم يتسخدمها قط
وفكره لا يزال في طفولته

---

(1) الخروج. الإصحاح الثاني والثلاثون: 3، 4، 25.
(2) الخروج. الإصحاح السابع: 10 ـ 12.

212 ـ وفي خلال الثماني والثلاثين سنة التي اعقبت رجوع الجواسيس من فلسطين[1]، استقر سبط بني يهوذا نهائياً في جنوبي فلسطين، بعد أن تكاثروا فيها بسبب التزاوج، في حين أن سبط بني رأوبين وسبط بني جاد وسبط بني منسي ظلوا يتجولون قرب منطقة أدوم إلى أن استقروا في شرق نهر الأردن[2]. أما الاسباط الأخر الذين كانوا في قيادة افرايم فمكثوا مع موسى ويشوع. وفي نهاية فترة التيه، عندما شاخ هارون واصبحت قضية من يخلفه في منصبه الكهنوتي موضوع نزاع[3]، خاصم قورح وجماعته بني هارون في حقهم في احتكار هذا المنصب. ولما حمى وطيس النزاع بينهم اندحر قورح بعد أن كان قد استولى على خيمة الاجتماع. وكانت هذه الخيمة ونارها الموقدة على الدوام خطراً آخر، بالاضافة إلى خطر النزاع، يهدد سلامة المخيم، وقد حدث فعلاً أن التهمت النار خيام جماعة قورح أثناء ذلك النزاع.

213 ـ لقد بلغ موسى وهارون في هذه المرحلة سن الهرم[4] وقد واجها عقبات شديدة في سبيل الحصول على الماء عندما كانا مخيمين معاً في المرة الأخيرة في قادش مريبة وذلك بالنظر إلى قلة الأمطار هناك. ولم يكن موسى في هذه المرة عديم الحيلة كما كانت عادته حين وقف موقف الملوم من بني إسرائيل في مريبة[5]. وأصبح من

---

(1) يشوع. الإصحاح الخامس عشر: 13، 17، العدد. الإصحاح الثالث عشر: 6، القضاة. الإصحاح الأول: 16.

(2) العدد. الإصحاح الثاني والثلاثون: 1، 39، الإصحاح الرابع والثلاثون: 14، 15.

(3) العدد. الإصحاح السادس عشر: 1، 2، 10، 19، 35.

(4) العدد. الإصحاح العشرون: 1، 2، 13.

(5) العدد. الإصحاح العشرون: 12.

الواضح أنه لم يعد يملك القوة التي يستطيع ان يقود بها بني إسرائيل (وتمتم بدون أن يفكر) وأمر الشعب بأن يذهب إلى الجهة الشمالية في قادش برنيع[1] الواقعة على الحدود الغربية لأدوم ليشن هجوماً ثانياً على فلسطين من الجنوب[2]. وقد أثرت هذه الحالة المحزنة في هارون فمات على رأس جبل هور قرب بصري وترك موسى وحده يدير شؤون الحملة. غير أن الكنعانيين كانوا متأهبين للاصطدام ببني إسرائيل الذين اضطروا، وقلوبهم ملأى بالحزن، إلى أن يرجعوا إلى قادش مريبة في أقصى الحدود الجنوبية لادوم. والآن لم يكن لدى موسى إلا أن يعترف بالأمر الواقع. ولا شك أن بني إسرائيل، وهم تحت قيادة يشوع، اتجهوا نحو الحدود الشرقية لأدوم «إلى شروق الشمس» في محاذاة تخم موآب[3]، فانقضوا على الأموريين الذين كانوا قد عبروا نهر الأردن واحتلوا القسم الشمالي لموآب المقابل للنصف الشمالي للبحر الميت، ولمدينة اريحا. وفي خلال سفرتهم في هذا الطريق لدغتهم حيات محرقة لدغات خطرة، فصنع لهم موسى حية النحاس[4]. ويبدو أنه كان يحمي رأس هذه الحية ويكوى به موضع اللدغات فينجي حياة أولئك اللدوغين[5]. والمعروف أن رأس هذه الحية النحاسية كان قطعة من نار وأنه كان موضوعاً على عمود، ولكن من المحقق أن هذا الرأي إنما شاع بين بني إسرائيل بسبب تعذر حمل هذه الحية باليد لحرارتها الشديدة. وقد بقيت هذه

---

(1) العدد. الإصحاح العشرون: 22.

(2) العدد. الإصحاح الحادي والعشرون: 1، 4.

(3) العدد. الإصحاح الحادي والعشرون: 11، 13 ـ 15.

(4) العدد. الإصحاح الحادي والعشرون: 6.

(5) العدد. الإصحاح الحادي والعشرون: 8.

الحية النحاسية مدة طويلة لدى بني إسرائيل حتى زمن الملك حزقيا الذي سحقها وذلك بعد أن رأى أنهم أخذوا يعبدونها بدلاً من أن يستخدموها في الأغراض المعقولة[1].

214 ـ ولا شك أن المكان الذي نازع فيه داثان وابيرام من سبط بني رأوبين، موسى حقه في تعيين من يخلفه في منصبه، إنما كان على الجانب الشرقي لنهر الأردن ضمن حدود المنطقة التابعة لبني رأوبين جادو منسى، وذلك لسببين[2]:

أولهما أن الاسباط الذين أعلنوا الثورة كانوا يقطنون شرق نهر الأردن، وكان سبط بني راوبين هو الذي بدأ بالعدوان وكان معه سبط بني جاد وبعض أفراد من سبط بني منسي (العدد. الإصحاح السادس عشر: 1، الإصحاح السابع والعشرون: 3).

وثانيهما، وهو في نظري أكثر قناعة من الأول، راجع إلى ما ورد في التوراة من أن داثان وابيرام وحلفاءهم «انشقت الأرض التي تحتهم وابتلعتهم»[3] إذ لا يخفى أنه لا يمكن وقوع حادث الانشقاق هذا إلا في المنطقة البارزة من جبل جلعاد المطلة على نهر الأردن أو نهر اليبوق. وكان موسى ـ على عادته دائماً ـ دقيق الملاحظة، فلما رأى الكارثة التي تنتظر قومه أنذرهم بوقوعها وأمرهم بترك هذا المكان. وقد انصاع لأمره كل بني إسرائيل، عدا الذين كانوا ثائرين عليه، وكان مصير هؤلاء أن ابتلعتهم الأرض. وعلى العموم فقد كان

---

(1) الملوك الثاني. الإصحاح الثامن عشر: 4.

(2) العدد. الإصحاح السادس عشر: 1، 12، 25، 31، 32، الإصحاح اسابع والعشرون: 3.

(3) العدد. الإصحاح السادس عشر: 31، 32.

من الأصوب الأخذ بنصائح موسى في أكثر الأمور. وسنرى قريباً إن حادث الانشقاق الأرضي الخطر الذي وقع هنا لم يكن الوحيد من نوعه خلال فترة الزلازل التي تعرض لها هذا القسم من العالم.

215 ـ ومع أن ثورة قورح على هارون وثورة داثان وابيرام على موسى[1] كانتا حادثتين منفصلتين انفصالاً واضحاً إلا أنهما ذكرتا معاً وذلك لأنهما نموذجان لنوع واحد من المشكلات التي تغلب عليها المشرع العظيم. ونظير هاتين الحادثتين الاغراء في مسه الذي وقع قرب الحدود الجنوبية للملكة يهوذا واللوم في مريبة الذي حصل في الحدود الجنوبية لمملكة أدوم[2]، فقد كانت هاتان الحادثتان عقبتين متشابهتين تغلب المشرع على إحداهما، ولكنه انحنى أمام الأخرى. وتهتم كتب التاريخ الحديثة بعنصر الزمن أكثر من اهتمامها بعنصر التشابه. اما الحالة في الازمنة القديمة فكانت على نقيض ذلك.

216 ـ وقد خيم بنو إسرائيل على طول الضفة الشرقية لنهر الأردن[3]، في منطقة تمتد من الجهة المقابلة لاريحا في الاتجاه الشمالي. وفي هذا المكان دونت أهم فصول العهد القديم. وفي هذا المكان أيضاً استدعى بالاق، ملك موآب، النبي بلعام من العراق ليأتي ويلعن بني إسرائيل[4]. ومن المحقق أن الرشوة التي بعث بها هذا الملك إلى النبي بلعام كانت ثمينة جداً، ولهذا بدأ بلعام رحلته من العراق مدفوعاً بتلك الرشوة الثمينة التي أغري بها، بيد أنه كان في أثناء هذه الرحلة متهيج الأعصاب وذلك

---

(1) العدد. الإصحاح السادس عشر: 1 ـ 40.

(2) الفقرة 192.

(3) العدد. الإصحاح الثاني والشعرون: 1.

(4) العدد. الإصحاح الثاني والعشرون: 4، 5، 15، 17.

لعلمه بأنه أغري بهذا المال الحرام ليلعن شعباً لم يلعنه الله[1]، وكانت النتيجة أنه تراءى له، وهو في حالة التهيج العصبي، ان الحمار الذي كان يمتطيه يؤنبه على هذا العمل، وبينما هو راكب إذ ضغطت رجله بالحائط فأغمي عليه اغماءة الموت. وفي سفر العدد فصلان يشتملان على التنبوءات والتحذيرات التي تفوه بها هذا النبي في تلك الساعة الحرجة التي لم يكن فيها قادراً على أن يحيد قيد شعرة عن التأثر بذلك الالهام وقوة الشعور اللذين استوليا على نفسه[2]. «كيف ألعن من لم يلعنه الله»[3] وقد اتم النبي ميخا تفاصيل ماتفوه به بلعام في عبارات ربما كانت أجمل ما ورد في جميع فصول العهد القديم. «بم اتقدم إلى الرب وأنحنى للآله العلي. هل اتقدم بمحرقات بعجول أبناء سنة. هل يسر الرب بألوف الكباش بربوات انهار زيت هل أعطي بكرى عن معصيتي ثمرة جسدي عن خطيئة نفس قد اخبرك أيها الإنسان ما هو صالح وماذا يطلبه منك الرب إلا أن تضع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعاً مع إلهك»[4].

217 ـ وهذا الفصل الذي اشتملت عليه التوراة، بالإضافة إلى آلاف الفصول الأخرى التي تتعلق بالتشريع وتراجم الرجال والتواريخ والأناشيد والنبوءات والروايات المقدسة والتاريخية، من جملة العوامل التي خلدت قيمة عظيمة لهذا الكتاب الذي هو التاريخ الديني للعالم ولبني إسرائيل. وتتضمن الفصول الأولى من سفر التكوين آراء حكماء الكلدانيين في أصل الكون ومصدر الشر، ممزوجة بفكرة التوحيد

---

(1) العدد. الإصحاح الثاني والعشرون: 22.

(2) العدد. الإصحاح الثالث والشعرون: 24.

(3) العدد. الإصحاح الثالث والعشرون: 8.

(4) ميخا. الإصحاح السادس: 5 ـ 7.

الخالصة التي جاء بها موسى. وهذه الآراء توضح لنا في صورة عجيبة الاتجاهات الفكرية لعقل الإنسان البدائي وآراءه الصحيحة عن التطور، ولكنها تبدو مليئة بالاخطاء إذا ما نظرنا إليها من وجهة نظر العلم الحديث. وهي بهذا الاعتبار شبيهة بنظرياتنا الحديثة إذا ما قيست بالعلم الأزلي. فالعلم والتاريخ والجغرافيا التي تضمنتها كتب العهد القديم إنما هي وليدة ذلك العصر الذي دونت فيه هذه الكتب مضافاً إليها بعض الشروح والتعليقات المختلفة. وهذه الشروح، كما نراها اليوم، محوطة بآراء غامضة. ولا شك أننا إذا اضفنا إليها اليوم شروحاً أخرى فإن هذه الشروح الجديدة ستبدو خاطئة، بعد مئات من السنين، في نظر أولئك الذين يأتون بعدنا والذين ستتوفر لديهم المعرفة التي نجهلها نحن اليوم. فالآراء العلمية والتاريخية التي تضمنتها أسفار العهد القديم ليست أكثر دقة وكمالاً، بالنسبة إلى حقليهما، من تقوي البطارقة وتشريع موسى الخلقي عندما تقارن هذه بأسمى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في عالم الأخلاق. ففي هذا العصر الذي شاع فيه النقد العلمي الدقيق بين الناس صار في مقدور الإنسان أن يقول: «قال القدماء، إن السموات والأرض خلقت في ستة أيام، وإن المعصية التي ارتكبها الإنسان إنما وقعت في جنة عدن، وإن العالم كله غرق بالطوفان في عصر نوح، وأن جميع المعجزات التي ذكرتها الكتب المقدسة حدثت واحدة بعد أخرى في العصور القديمة، ولكن يمكنني أن أقول: إن السموات والأرض خلقت في مدة تستغرق ملايين من السنين، وإن الخطيئة كانت موجودة دائماً، وأن الذي غرق بالطوفان أيام نوح إنما هو وادي دجلة والفرات فقط، وأن ما تراءى للقدماء من معجزات حقيقية إنما كانت في الواقع حوادث طبيعية. وهذه الحوادث يجب علينا أن نبحث عنها حتى نتوصل إلى كشف أسبابها الطبيعية» فبهذه الطريقة وحدها يمكننا أن نبحث في هذه

المواضيع بثقة. وهذه الطريقة تختلف عن الطريقة التي سلكها الرسل في تدوين الكتب المقدسة. فالقانون الخلقي العظيم الذي جاءت به التوراة والذي تجلى في الأوامر والنواهي التي وردت فيها، لا دخل له مطلقاً بالآراء التاريخية والجغرافية والعلمية لأولئك القوم البسطاء الذين أوحى إليهم أن يقولوا الحقيقة بكاملها بقدر ما كانت تتيحه لهم معلوماتهم المحدودة من الادراك. فالذين يؤمنون بالقيم الخلقية لتعاليم العهد القديم سيظلون محتفظين بهذا الإيمان ولا تقل في نظرهم تلك القيم بالرغم من النقد الذي وجه إلى هذا الكتاب قبل الفي سنة حين تحداه العهد الجديد بكل ثقة فقال: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء عين بعين وسن بسن وأما أنا فأقول لكم»[1].

218 ـ ولم يتوقف موسى عن المضي في تنفيذ خطته حينما شعر بعجزه عن أن يقود بني إسرائيل في الأيام العصيبة التي كانت تواجههم. وهو في هذا على خلاف ما كان عليه أخوه هارون من الضعف[2]. وشرع موسى في تدوين الحوادث التي تضمنتها الكتب الخمسة الأولى للتوراة عندما كان على الجانب الشرقي من الأردن، كما يستفاد ذلك من الشواهد الموجودة في هذه الكتب نفسها. ولما كانت هذه الكتب مدونة في الأصل بالخط البابلي[3]، سواء كانت مؤلفة باللغة البابلية أو العربية، أصبحت[4] غير مفهومة لبني إسرائيل الذين أخذوا عن الكنعانيين لغتهم وعاداتهم. ويمكن القول أن هذه الكتب فقدت[5] بعد أن نقلت إلى اللغة

---

(1) متى. الإصحاح الخامس: 21، 27، 33، 38.

(2) التثنية. الإصحاح الحادي والثلاثون: 24.

(3) التكوين. الإصحاح الأول: 10، 11.

(4) التثنية. الإصحاح الثالث: 25، الإصحاح الحادي عشر: 29، 30.

(5) العدد. الإصحاح الثاني والعشرون: 1.

الكنعانية التي تسمى اليوم اللغة العبرية. وقد أضاف كثير من النساخ والكتاب اللاهوتيين أموراً جديدة إلى هذه الكتب حتى صارت على الصورة التي هي عليها الآن. وقد أرتنا العصور الهزيلة المتدهورة التي عاشت فيها آخر طبقة من النساخ، رجالاً اكفاء قادرين على نقل ذلك الاسلوب القوي السامي الذي انتجته أعظم شخصية للعهد القديم، إلى اسلوب حماسي مؤثر، ولكن هؤلاء الرجال لم يتمكنوا من الاتيان بالكلمات الاصلية نفسها، تلك الكلمات التي خيل للذين عاصروا موسى أنها كتبت على ألواح من الصخر بيد الرب نفسه[1].

219 ـ والآن قد دنت منية موسى فدعى يشوع وقال له[2]: «تشددوا وتشجعوا. لا تخافوا ولا ترهبوا وجوههم. لأن الرب إلهك سائر معك لا يهملك ولا يتركك». وبعد أن وجه موسى نصائحه الأخيرة، على العادة التي كان يتبعها حيث كان ينصح بني إسرائيل مرة بعد أخرى، سار وحده إلى جبل نبو[3] المطل على الجهة الشرقية للبحر الميت. وقد وصف الدكتور جورج آدم سمث البقعة التي ألقى موسى منها آخر نظرة على الأرض التي لم يقدر له أن يراها فقال: «إذا اتجهت نحو الغرب وأنت على الهضبة المرتفعة لموآب، ثم نزلت من حقول القمح واجتزت الحد الصواني المنخفض الذي يغطيه التل الكلسي ذلك الحد المسمى «راس نبع» ترى كل القسم الغربي لفلسطين. أما وادي الأردن فلا يرى من هذا المكان، وكذلك القسم الشمالي والقسم الجنوبي منها، وذلك لأنهما يكونان محجوبين عن

(1) الخروج. الإصحاح الثاني والثلاثون: 15، 16.
(2) التثنية. الإصحاح الحادي والثلاثون: 6.
(3) التثنية. الإصحاح الرابع والثلاثون: 1.

النظر بالتلول العالية المجاورة. فإذا اتبعت هذا الحد إلى أن تصل إلى القمة الثانية. المسماة رأس صياغه التي ترتفع 3400 قدم فوق مستوى سطح البحر الميت فإنك تجد نفسك على تخم منعزل عن باقي السلسلة الجبلية، ولو كان هذا التخم أوطأ من رأس نبع. ففي هذه الحالة تستطيع أن ترى كل وادي الأردن من انجدي التي لا يخترقها الضباب إلى مكان يقع في الشمال حيث يخيل للرائي ان تلول جلعاد تلتقي بتلول افرايم. فهنا يجري نهر الأردن في الأراضي الواطئة ومن ورائها ترى أريحا. وقد قيل أنه يمكن رؤية حرمون من جلعاد إذا كان الطقس صافياً لكن حرارة الشمس حجبته عنا. وأن هذا المنظر هو آخر ما وقعت عليه عينا موسى على ما قيل[1]. فالتلول المرتفعة الواقعة في غربي فلسطين تحجب منظر البحر عن عين الرائي بصورة مطلقة. وهذا الذي ذكرناه يطابق تمام المطابقة الوصف الذي ورد في العهد القديم: «عند رأس الفسحة التي تشرف على وجه البرية»[2].

220 ـ فسار يشوع على ضفة الأردن على رأس جيش بدوي خشن. ولم يكن هناك ما يعوق تقدم هذا الجيش سوى النهر الذي أمامه فإنه كان عميقاً جداً لا يسمح لأحد بالعبور فيه[3]. وفي أثناء هذه الأزمة التي حصلت في تاريخ بني إسرائيل ظهر ليشوع ملاك الرب فحثه على أن «يتشدد ويتشجع ولكنه زود بشيء آخر أكثر من الشجاعة:

---

(1) التثنية. الإصحاح الرابع والثلاثون: 1، 2.

(2) العدد. الإصحاح الحادي والعشرون 20.

(3) يشوع. الإصحاح الأول: 6.

عند خروج بني إسرائيل من مصر
وبيت يعقوب من شعب أعجم
كان يهوذا مقدسه
وإسرائيل محل سلطانه
النهر رآه فهرب
الأردن رجع إلى خلف
الجبال قفزت مثل الكباش
والآكام مثل حملان الغنم
ما لك أيها النهر قد هربت
وما لك أيها الأردن قد رجعت إلى خلف
وما لكن ايتها الجبال قد قفزتن مثل الكباش
وايتها التلال مثل حملان الغنم
أيتها الأرض تزلزلي من قدام الرب
من قدام آله يعقوب[1]

ويلاحظ أنه اطلق في الترجمة الانكليزية للعهد القديم على الأردن اسم بحر. وقد استبدلتها بكلمة «نهر» وذلك لأن الواقع أن الأردن نهر وليس ببحر.

221 ـ وحدث ان حصلت هزة أرضية عنيفة ازاحت قطعة كبيرة ذات مسام كثيرة من جبل جلعاد واسقطتها في نهر الأردن فسدت مجراه سداً محكماً وانقطعت عنه المياه نحو بضعة أيام الأمر الذي سبب، بصورة تدريجية، تكوين بحيرة هناك ولما ارتفعت المياه في هذه البحيرة شقت لها طريقاً في الأقسام الواطئة من السد المتكون من

(1) المزامير. 114.

قطعة الجبل الساقطة في النهر، فجرت في الجهة الأخرى منه. ولما وقفت على جانب النهر في الجهة المقابلة لهذه البقعة القديمة أعادت لي الذاكرة الفصل المختص بيشوع:

222 ـ «فعند اتيان حاملي التابوت إلى الأردن وانغماس أرجل الكهنة حاملي التابوت في ضفة المياه[1] (والأردن ممتلئ إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد) وقفت المياه المنحدرة من فوق وقامت نداً واحداً بعيداً جداً عن ادام المدينة التي إلى جانب حرتان. والمنحدرة إلى بحر العربة بحر الملح انقطعت تماماً وعبر الشعب مقابل أريحا. ونصب يشوع اثني عشر حجراً[2] في وسط الأردن تحت موقف أرجل الكهنة حاملي تابوت العهد».

223 ـ وسقطت القطعة الجبلية قرب مصب نهر يبوق في الأردن على مسافة نحو خمسة وعشرين ميلاً إلى الشمال من المصب المذكور. وقد أدى ذلك إلى توقف سيل المياه التي كانت تتدفق من الأردن وتصب في البحر الميت، وهكذا أخذت مياه البحر الميت تتجه إلى الشمال نحو السد الجبلي وتملأ حوض الأردن الذي انقطعت عنه المياه بعد حدوث هذا السد. ولما دقت الأبواق أقام بنو إسرائيل سداً عبر النهر، وقد ساعدهم على ذلك انقطاع التيار المائي الذي كان يحول دون إقامة هذا السد، ثم عبروا النهر ودخلوا أرض الميعاد سالمين.

224 ـ وأول مدينة احتلوها أريحا، ولم يجدوا في احتلالها صعوبة لأن أسوارها كانت متهدمة من جراء الزلزال نفسه الذي أدى

---

(1) يشوع. الإصحاح الثالث 15، 6.

(2) يشوع. الإصحاح الرابع: 9.

إلى سد مجرى نهر الأردن. ومع هذا فقد حوصرت ستة أيام ودعى السكان خلالها إلى التسليم، وفي اليوم السابع استسلموا. وقد اعيد بناء هذا السور[1]، ولكنه انهدم مرة أخرى أثر حدوث زلزال أرضي آخر وقد شاهدت قبل أربع سنوات انقاض هذا السور المنهدم على الأرض.

225 ـ وفي سنة 1266 ميلادية امر سلطان مصر بيبارس الأول ببناء جسر على نهر الأردن لاغراض عسكرية. وكان المكان الذي قرر إقامة هذا الجسر فيه قريباً من قرية دامية (قرية ادام القديمة). ولما انجز بناؤه سقطت بعض اعمدته في حوض النهر. وفي مساء يوم 8 كانون الأول سنة 1267 انقطعت مياه النهر. والسبب في ذلك ان القسم الجبلي المرتفع الذي كان يطل على النهر من الجهة الغربية سقط في النهر وسد المجرى. ثم اخذت المياه ترتفع فانتشرت في القسم الشمالي من الوادي وكانت المياه قد انقطعت عن مجراها الأصلي ابتداء من منتصف الليل حتى الساعة الرابعة من النهار التالي أي حوالي 16 ساعة. ثم ارتفع مستوى المياه فوق السد وشق الماء له طريقاً فوق السد. كل هذا حدث عندما كان الأردن في قمة فيضانه». هكذا ذكر في المخطوط العربي للنويري.

226 ـ وقيل لي أنه سقط، قبل نحو ثلاثين سنة تل في جبال الهملايا وكون سداً ارتفاعه ألف قدم في الوادي الذي هو أحد المنابع لنهر جنكيس. ولم تمتلئ البحيرة التي تكونت أمام هذا السد بالمياه إلا بعد مضي اثني عشر شهراً. وبعدها اخذت المياه تجري فوق السد وكان الوادي الواقع جنوب هذا السد جافاً طول سنة

(1) يشوع. الإصحاح السادس عشر: 3، 16، 20.

كاملة. وبعد أن بلغ مستوى الماء قمة السد، اخذت المياه تسقط من فوقه وتسير إلى الجهة الأخرى فكونت شلالاً هدم ذلك السد. وحصل بعد هذا طوفان عظيم جرف كل ما كان في الوادي. غير أنه قبل ان يقع ذلك الطوفان بمدة كافية قام المهندسون بمسح مستويات أرض الوادي ووضعوا علامات على التلول المرتفعة التي تكون بمنجاة من خطر الفيضان، ولما دنت ساعة الخطر انذروا سكان الوادي بذلك فانتقلوا ونقلوا معهم امتعتهم وقطيعهم، إلى التلول المرتفعة البعيدة عن الخطر ولم تحدث أية خسارة في الأرواح.

227 ـ وهكذا كان الطوفان الذي هيأ لبني إسرائيل الفرصة للدخول في أرض كنعان، فقد ساعدتهم تلك الهزة الأرضية التي احدثت ثغرات في كثير من أسوار المدن المحصنة. ويتضح لنا مما تقدم إن مياه نهر الأردن انقطعت عن الجريان بسبب القطعة الجبلية التي سقطت في حوض النهر على أثر هزة أرضية عنيفة، في حين أنه خيل لبني إسرائيل أن نهر الأردن قد هرب ورجع إلى الخلف عندما انغمست أرجل كهنتهم في الماء. غير أنه لم يتوصل أحد حتى الآن من الذين بحثوا في أسرار هذا الكون، إلى معرفة سبب حدوث تلك الهزة الأرضية في تلك الساعة الحرجة الدقيقة من تاريخ حياة شعب امدنا مؤرخوه بنظريات عن الحقائق الآلهية أصدق من نظريات اعظم فلاسفة اليونان.

228 ـ وبعد دراسة استغرقت سنين عديدة للحوادث التي وردت في العهد القديم فيما يتعلق بتيه بني إسرائيل في المنطقة الواقعة بين مصر وفلسطين (مع العلم بأنه كان يساعدني في هذه الدراسة، مدة سنة، زملائي الذين كانت لهم خبرة بكل شبر من تلك المنطقة) ظهر

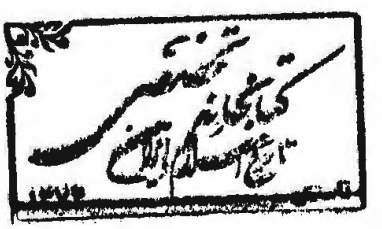

لي إن هناك طريقين لحل المشكلات التي تحيط برحلة موسى: أولهما إن موسى حين طلب إلى فرعون إن يسمح له بالسفر مدة ثلاثة أيام إلى معبد آله قومه[1]، أنه أراد سفرة ثلاثة أيام. وهذه المسافة تطابق مطابقة تامة المسافة بين حدود الأراضي المصرية في الزمن القديم في ألوس (العريش) وبين قادش برنيع الواقعة خارج هذه الحدود. وهذه هي المسافة نفسها أيضاً بين جبل الرب وبين البحر الأبيض المتوسط (العدد. الإصحاح العاشر: 33 الإصحاح الحادي عشر: 31). وثانيهما إن الشريعة نزلت على موسى في كلا المعبدين: معبد قادش برنيع الواقع في برية فاران جنوب مملكة يهوذا، ومعبد قادش مريبة الواقع في برية صين جنوب مملكة ادوم. وقد سبق أن اقتبسنا فيما مضى العبارة الواردة في التوراة «صعدت نار شريعة من صحراء ادوم وتلألأت في جبل فاران»[2] فإذا اخذنا هذين الأمرين بنظر الاعتبار نجد إن الصعوبات التي أثارها كثير من أعاظم النقاد لا أساس لها، أما الاضطراب في تسلسل الحوادث فسببه تعليقات النقاد أنفسهم لا التوراة نفسها. ولا يمكن أن تكون المسافة التي قطعها بنو إسرائيل في تجوالهم ذهاباً وإياباً بين مراعي الشتاء والصيف مع قطعانهم وأغنامهم، أقل من ثلاثين ميلا[3]. هذا مع العلم أن خيمة مشرعهم كانت في وسطهم[4]، أما خيمة الاجتماع التي كانت عادة بعيدة عن خيمة قائدهم فيمكن أنها كانت في وسط خيم أسباط بني إسرائيل. والواقع ان عظمة خيمة الاجتماع هذه لم تكن نتيجة لوقوعها في

---

(1) الخروج. الإصحاح الثالث: 18، الإصحاح الثامن: 27.

(2) التثنية. الإصحاح الثالث والثلاثون: 2، القضاة. الإصحاح الخامس: 4.

(3) الخروج. الإصحاح الثالث والثلاثون: 7، 11.

(4) العدد. الإصحاح الثاني: 17.

الوسط، ولا في استارها المصنوعة في شكل جميل من خيوط القنب ذات الألوان المختلفة: الأبيض والأزرق والأرجواني والأحمر، ولا في الأعمدة الخشبية الصلبة المطلية بالذهب[1]، ولكن في الرسالة الإلهية المقدسة التي جاءت بها إلى العالم: «اسمع يا إسرائيل الرب آلهنا رب واحد. فتحب الرب آلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك. الرب آلهك تتقي. إياه تعبد وبه تلتصق وباسمه تحلف. لأنه هو حياتك والذي يطيل أيامك»[2].

(1) العدد. الإصحاح السادس والثلاثون: 35، 36.

(2) التثنية. الإصحاح السادس: 4، 5، الإصحاح العاشر: 20، الإصحاح الثلاثون: 20.

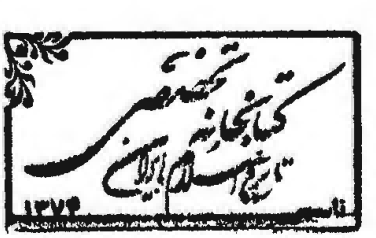

هذا الكتاب

استهدفت اثناء اقامتي في العراق مدة ثلاث سنوات، دراسة نهر الفرات من منبعه الى مصبه لأصل الى معرفة مكان الجنة التي يمكن تأمين وصول المياه السيحية اليها خلال الاثني عشر شهراً من السنة فظهر لي أنه لا يوجد في المنطقة الواقعة جنوب هيت مكان يمكن أن تتوفر فيه الشروط المذكورة سوى الاراضي المستصلحة في منطقة الأهوار قرب الخليج العربي، جنوب الناصرية، بجوار مدينة «اريدو» القديمة حيث كانت عدن السومريين التي سنتكلم عنها.

كانت هذه الجنة حديقة غناء مليئة بالنخل الذي لا يزال يعتبر حتى يومنا هذا شجر الحياة كما أنها كانت مليئة بأشجار الكروم، أشجار المعرفة التي حرم أكل ثمرها. والتربة والمناخ هنا يصلحان بطبيعتهما لنمو الأشجار المثمرة على اختلاف أنواعها. كالنخل وشجر البرتقال والخوخ والاجاص. غير أن النخل يعتبر من أهم ما تنبته هذه الارض وذلك لأن زراعته لا تحتاج الى جهد كبير كما يقول المثل «اغرسه في الماء واتركه فهو ينمو بطبيعته».

ISBN 1900-700-57-3
9 781900 700573

دار الوراق للنشر - لندن
Alwarrak Publishing Ltd.

U.K.
56 Gloucester Road,
Suite 500,
London SW7 4UB. UK
Tel.: 0044 208 723 2775
Fax: 0044 207 581 9213

LEBANON
Hamra St. Rasamni Bldg.
Tel.: 961 1 750054
Fax: 961 1 750053
P.O.Box: 113-5182
Beirut - Lebanon

www.alwarrakbooks.com
warrakbooks@hotmail.com